دور السمع

فى نظرية الفصاحة ومكانته فى الدراسات الصوتية

إعداد

د / محمد عبد اللطيف على

وكيل كلية اللغة العربية بجرجا

تقديم

الحمد له رب العالمين والصلاة السلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الأطهار الطيبين ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين .

أما بعد ،،

فقد أورد ابن خلدون في مقدمته " السمع أبو الملكات اللغوية"(٧٧) ، وهذه حقيقة ، لأنه طريق العلم ، فهو آلة لتلقي المعارف التي بها كمال العقل ، وعلى ذلك فُسِّر تقديم السمع على البصر في القرآن الكريم " وفي تقديم السمع على البصر في مواقعه من القرآن دليل على أنه أفضل فائدة لصاحبه من البصر ، فإن التقديم مؤذن بأهمية المُقَدَّم ، وذلك لأن السمع آلة لتلقي المعارف التي بها كمال العقل ، وهو وسيلة بلوغ دعوة الأنبياء إلي أفهام الأمم على وجه أكمل من بلوغها بواسطة البصر لو فقد السمع ، ولأن السمع ترد إليه الأصوات المسموعة من الجهات الست بدون توجه ، بخلاف البصر فإنه يحتاج إلي التوجه بالالتفات إلي الجهات غير المقابلة " . (٧٨)

وقد حدد علماء المعجمات المقصود بالسمع فقالوا " السمع : قوة في الأذن بها تدرك الأصوات " (٧٩)

---

(٧٧) المقدمة لابن خلدون ص ٥٥٤ طبع المكتبة التجارية .

(٧٨) تفسير التحرير والتنوير للأستاذ محمد الطاهر بن عاشور ٢٤٤/١ طبع عيسى البابي الحلبي .

(٧٩) المعجم الوسيط تأليف لجنة المعجمات في المجمع اللغوي القاهري ٤٦٧/١[سمع]طبع ١٩٨٥م الطبعة الثانية .

وأورد ابن منظور " السمع : ما وقر في الأذن من شئ تسمعه"(٨٠) ، وأورد أيضا أن السمع " حِسُّ الأذن " (٨١)

وبما أن الموضع الطبيعي للسمع هو الأذن ، فقد اشتقت العرب من الأذن معنى السمع ، فقد أورد ابن منظور : قال قعنب بن أم صاحب :

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا
مني وما سمعوا من صالح دفنوا
صم إذا سمعوا خيرا ذُكرت به
وإذا ذكرت بشرٍّ عندهم أَذِنُوا(٨٢)

واشتقوا من الأذن ما يدل على الرغبة والقبول ، أو نفيه وعدم تقبله ، وعن ذلك أورد ابن منظور " أَذِنتُ لحديث فلان ، أي اشتهيته ، وأَذِنتُ لرائحة الطعام، أي اشتهيته وهذا طعام لا أَذَنَة له ، أي لا شهوة لريحه " .(٨٣)

وهذه النصوص توضح أن الأذن هى الحاسة الطبيعية التى عن طريقها تنقل اللغة إلي مراكز السمع فى المخ ، ولذلك فقد أطلق العرب على المشتق من الأذن ما يعنى السمع ، بل إنهم أوضحوا أن الأذن تستأنس المألوف من الكلام ، وتنفر عن غيره من الوحشى والمستكره عندما عبروا عن المشتق من الأذن بمعنى الشهية .

---

(٨٠) لسان العرب لابن منظور ٢٨/١٠ [سمع]

(٨١) لسان العرب ٢٦/١٠ [سمع] .

(٨٢) لسان العرب ١٤٨/١٦ [أذن] .

(٨٣) لسان العرب ١٥١/١٦ [أذن] .

وقد عبر الهمدانى فى القرن الرابع الهجرى من أن الخَرَس والبَكَم أحسن من النطق باللفظ الغريب الشاذ حيث يقول " ووجدت من المتأخرين فى الآلة قوماً أخطأ هم الاتساع فى الكلام ، فهم متعلقون فى مخاطباتهم وكتبهم باللفظة الغريبة ، والحرف الشاذ ، ليتميزوا بذلك من العامة ، ويرتفعوا عند الأغبياء عن طبقة الحشو ، والخَرَس والبَكَم أحسن من النطق فى هذا المذهب التى تذهب إليه هذه الطائفة فى الخطاب " . (٨٤)

وهذا الإحساس بأصوات الكلمات وتقبلها ، أو عدم تقبلها ، لإلفه لها ، أو عدم سماعها ، أو لأمور أخرى نفسية أو غيرها جعل اللغة المنطوقة لها تأثير على المستمعين يختلف عن اللغة المكتوبة ، وهذا ما عبر عنه " والترج أونج" "Walter J.ong " بأن اللغة المنطوقة لها قوة سحرية فى حين أن اللغة المكتوبة تشبه فى نظر الكتابيين الأشياء على منضدة لا حياة فيها إلا بنطقها واستخدامها حيث يقول إن نظرة الشعوب الشفاهية فى عمومها وعلى الأرجح كلها ، إلي الكلمات بوصفها ذات قوة تأثير سحرية ــ هذه النظرة ترتبط على الأقل فى لا وعيهم ، بإحساسهم بها من حيث هى بالضرورة منطوقة ، ذات صوت ، ومن ثَمَّ ناتجه عن قوة .

هذا فى حين ينسى الشعب المستوعب للطباعة بعمق أن ينظر إلي الكلمات على أنها شفاهية فى المحل الأول ، أى على أنها أحداث مشحونة لا محالة بالقوة . ذلك أن الكلمات عندهم تقترب من الأشياء القائمة هناك على

---

(٨٤) لسان العرب ١٤٨/١٦ [أذن] .

سطح منبسط ، ولا ترتبط أشياء كهذه بالسحر بسهولة ، فهى ليست أفعالاً ، بل هى ميتة أساساً ، برغم أنها تقبل أن تبعث بطريقة دينامية " (٨٥)

ويضاف إلي الصوت فوق أنه مؤثر من حيث هو صوت فى العاطفة والانفعال . وتغير معنى الكلمة بتغيره ، وإضفاء الفصاحة على اللفظ ، أو سلبها من حيث تقبل السمع واستكراهه له ، فإن هناك جوانب صوتية ذات وظيفة دلالية وتركيبية " قد سجل علماؤنا من خلال القراءات القرآنية دقائق صوتية خاصة بالتراكيب حيث يتحول التركيب دون أن ينقل فيه حرف من موضعه ، أو يغير فيه حرف من حال إلي حال فيتحول التركيب إلي استفهام عن طريق النطق . أو إلي إخبار ، كما سجلوا كيفية النطق التى تنبثق عنها الدلالة ، ونوصى هنا بوجوب استثمار هذه الدراسات فى مباحث تركيبية ودلالية ذات طابع إبداعى مستقل يثمر علوماً لغوية تسهم بها فى علم الأساليب ، وعلوم اللغة الحديثة " . (٨٦)

ومن هنا يرى الدكتور إبراهيم أنيس أن الألسنة تتعاون مع السمع فكأنها تتمرن على الذلاقة فلا تتعثر كما أن الأذن تتمرن على موسيقى الألفاظ فتألفها عندما تكون منسجمة وتنفر منها إذا كانت وحشية ، ويظهر ذلك واضحاً فى المجتمع الأمى حيث يقول فى ذلك " وكما تمرن الآذان فى بيئة الأمية تمرن الألسنة أيضا . فتنطلق من عقالها وقد اكتسبت صفة الذلاقة ، فلا تتعثر أو

---

(٨٥) الشفاهية والكتابية تأليف " والترج أورنج صـ ٩١ ترجمة د / حسن البنا عز الدين مطبوعات سلسلة عالم المعرفة العدد رقم ١٨٢ . الكويت ١٩٩٤ .

(٨٦) فى علم الأصوات اللغوية وعيوب النطق د / البدراوى زهران ص ٤٠٦ طبع دار المعارف ١٩٩٤ م.

تزل فى أثناء النطق ، وتتعاون الأذن مع اللسان فى مثل تلك البيئة على إيثار العناصر الموسيقية من اللغة ، ونفى العناصر النابية والتخلص منها ، ويؤدى هذا مع مرور الأيام وبشرط أن تظل الأمة فى نهضتها الاجتماعية والحضارية إلي انسجام فى أصوات الكلام ، وحركاته ، ومقاطعة ، ويقترب بذلك إلي نوع من الموسيقى أو الغناء (٨٧)

"ولأمر ما سُمى الأعشى بصناجة العرب فهو مع اشتراكه فى الأمية كجمهور الناس فى بيئته قد عُوض عن فقد البصر بسمع مرهف ، وأذن أكثر حساسية جعلته يتجه بكل قلبه ونفسه نحو هذه الموسيقية اللفظية ، ويوغل فيها حتى تميز شعره بصلاحيته للغناء أكثر من غيره " . (٨٨)

وهذه الجوانب الصوتية التى أوضحها العلماء بداية من الخليل وسيبويه ومن جاء بعدهما إلي يومنا هذا أفاد منها الشعراء والأدباء وعلماء البلاغة والنقاد " وقد شاعت الدراسات الصوتية التى قام بها الخليل وسيبويه ومَنْ بعدهما فى نواح مختلفة من الدراسات اللغوية ، فالقراء أصحاب الأداء القرآنى فى علم التجويد نظموا لهم دراسات وقواعد اشتقوها من دراسات الخليل وتلاميذه ، ومن دراسات الكوفيين والبصريين ، و الفوا فى ذلك كتباً كثيرة مطولة ومختصرة ، وكذلك استفاد من هذه الدراسات علماء البلاغة والنقد التقليديون خاصة فيما سموه فصاحة اللفظ المفرد من أمثال على بن عيس الرمانى فى كتابه " النكت " فى إعجاز القرآن العظيم ، وابن سنان

---

(٨٧) دلالة الألفاظ د/ إبراهيم أنيس ص ١٩٥ ــ ١٩٦ طبع مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٦ م .

(٨٨) السابق ص ١٩٨ ــ ١٩٩ .

الخفاجي فى كتابه "سر الفصاحة " وعبد القاهر الجرجانى فى كتابيه " أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز " ، فعلماء العربية القدماء وظفوا جانب الدراسات الفنولوجية ، وإن لم يعرفوا اسمه أسمى توظيف ، واستفادوا منه إلي أبعد حدود الاستفادة " . (٨٩)

وأما عن السمع ودوره فى الفصاحة ففيه أن الأذان هى التى تستقبل الأصوات ، وعن طريقها بما فيها من شعيرات ترسل الأصوات للمخ ، فترجم إلي معان ، فهى تميز بين الرقيق الحسن والغليظ القبيح وصدق ابن الأثير حيث يقول" الألفاظ تجرى من السمع مجرى الأشخاص من البصر ، فالألفاظ الجزلة تتخيل فى السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار ، والألفاظ الرقيقة كأشخاص ذو دماثة ولين أخلاق (٩٠).

وقد أدرك علماء البلاغة أهمية السمع فى فصاحة الألفاظ ، فاشترطوا لفصاحة المفرد أن يخلص من الكراهية فى السمع وهو ما يسمى بتنافر الحروف، وإن اختلفوا فى المقصود من الألفاظ الوحشية ، أو الأصوات المتنافرة ، أو تقارب المخارج أو القلة فى الاستعمال ، فإن جميعها يصب فى نفور الأذن له ، وعدم تقبله ، لأنها لم تألفه سماعاً أو تأليفاً ، فضلاً عن أن الأداء والمقام لهما أثرهما فى ذلك فالكلمة تحسن فى موقع ، وتقبح فى موقع آخر وعليه فإن الحسن والقبح أمر نسبى وللذوق فيه نصيب ولذلك يقول أبو هلال العسكرى

---

(٨٩) فى علم الأصوات اللغوية وعيوب النطق د/ البدراوى زهران ص ٣١٢ .

٩٠- المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ١٩٥/١ تحقيق د/ أحمد الحوفى ، د / بدوى طبانة طبع دار نهضة مصر .

" نحن نفهم رطانة السوقى ، ومجمجمة الأعجمى للعادة التى جرت لنا فى سماعها ، لا لأن تلك بلاغة "(٩١) .

ومما يدل على أن السمع له دور بارز فى فصاحة اللفظ فإن العلماء قالوا بأن اللفظة إذا طالت بنيتها ثقلت ، وإذا توالت حركاتها ثقلت ، وإن الفصاحة فى تآلف الأصوات المتباعدة دون المتقاربة . ولكن بالمثال والحجة فقد ورد فى القرآن الكريم كلمات طويلة ولم تثقل ، ووردت كلمات كل حركاتها الضم ولم تثقل ، ووجدت الكلمات من مخرج واحد ، ولم يقل أحد بعدم فصاحتها ، بل أنه من سر هذه اللغة وجد أن اللفظ قد يحسن وهو مفرد ، ويثتثقل وهو جمع ، أو مثنى ، والعكس كذلك ومما له دور رئيس فى فصاحة اللفظ التنغيم ، فإنه ينفى عن اللفظ الفهم الخاطئ والإبهام واللبس .

وأما عن "السمع والدراسات الصوتية والتجويد " ففيه أن علم الأصوات دراسة لموضوع مدرك بالحواس ، فالنظر يرى حركة الشفتين ، والفك واللسان ، وبعض عضلات الوجه ، والسمع هو الذى يدرك الآثار الناجمة عن الحركات من شدة ورخاوة ، وجهر وهمس ، وصائت وصامت ، وتفخيم وترقيق وإطباق وانفتاح ، ومد وقصر وكذلك الإمالة ، والروم ، والغنة ، والصفير ، والتفشى وبالجملة الصفات الصوتية المتقابلة أو التى لا مقابل لها .

ولأهمية السمع فى الدراسات الصوتية ، فإن الرومان واليونان قامت دراساتهم الصوتية حول ملاحظة الآثار السمعية التى تتركها الأصوات فى الأذن

٩١- الصناعتين لأبى هلال العسكرى ص ٢٠ نشر دار الكتب العلمية سنة ١٩٧١م .

والواقع أن حركات الأصوات جميعها متشابهة فى حركاتها بالنسبة للنظر ، ولا يفرق بينها بمعرفة التاء من الثاء مثلاً ، أو متى يبدأ الصوت ومتى ينتهى ؟ أو المدة الزمنية التى يستغرقها هذا الصوت أو ذاك إلا عن طريق السمع ، ولذلك يقول دوسوسير " إن إغفال الجانب السمعى فى الدراسة منهج غير صحيح"(٩٢) ، ولا يقف السمع عند تحديد مخرج الصوت وصفاته ، بل يحدد نوع المتحدث ذكرا كان أو أنثى ، وعمره ، وصحته ، وعاطفته ، وانفعاله ، ومزاجه بين الترحيب والنشوة ، أو الاستسلام والاكتئاب ، وهذه الجوانب عدها العلماء من دراسة الأسلوب الصوتى(٩٣).

وقد حدد العلماء نوعا خاصا للدراسة الصوتية كما تستقبلها الأذن عرف بعلم الأصوات الأكوستيكى "(٩٤) ، ويعالج درجة الصوت ، وعلوه ، وكيفية تنغيمه ، وكذلك النبر والتنغيم والمفصل ، وهذه الأمور لها دخل كبير فى تحديد المعنى وتوضيحه ، بل إن بعض اللغات كالصينية تعتمد فى توضيح معانى ألفاظها على التنغيم والنبر ، وقد تنبه الأقدمون العرب لذلك ، فابن جنى يرى أن " التفخيم ، والتعظيم ، والتطويح ، والتطريح"(٩٥) يدل على معنى

٩٢- فى علم اللغة العام د / عبد الصبور شاهين ص ١١٧ طبع مؤسسة الرسالة سنة ١٩٨٤م .

٩٣- أنظر الأصوات والإشارات أ / كندراتوف ص ١٧٩ ترجمة شوقى جلال طبع الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٧٢م.

٩٤- أسس علم اللغة تأليف " ماريوباى " ص ٤٨ ترجمة / أحمد مختار عمر طبع دار الكتب بالقاهرة سنة ١٩٨٢م

٩٥- الخصائص لابن جنى ٢ ٣٧٠ / ٣٧١ تحقيق محمد على النجار طبع عالم الكتب

يكمل الألفاظ المنطوقة ويوضحها ، بل إن الأقدمين فرقوا بين الأصوات المستحسنة والمستقبحة من الأصوات عن طريق السمع وللمحافظة على القرآن الكريم من أن يناله لحن أو خطأ أنشأ الأقدمون علم التجويد ، وهو علم لا يكتسب ولا يتقن إلا بالمشافهة والمران ومحاكاة مجيدى القراءات القرآنية الصحيحة . والقراءات لا توصف بالصحيحة إلا إذا امتد نسبها إلي النبى صلى الله عليه وسلم أى أخذت بالتلقين .

ومن جانب آخر ، وهو تلمس المعنى من خلال نطق الصوت مفرداً أو مركباً ، فإن العلماء يرون أن دراسة المعنى لايمكن أن تثمر ما لم ترتكز على دراسة الصور الصوتية ، والتنغيمية . وعلم اللغة الحديث ينظر إلى الدلالة المعبرة للأصوات بأنها المفتاح لدلالة الأصوات .

والعلاقة بين الأصوات والدلالة أمر يوجد فى جميع اللغات إلا إنه فى العربية أكثر وأوسع . وقد أفاد الشعراء والأدباء من الأصوات وقدرتها على الإيحاء بالمعنى ومحاكاته ؛ لأنها أقدر على التأثير ، وكذلك على خلق صورة فى العقل والخيال من خلال جرس الصوت وإيقاعه .

(السمع ودوره فى الفصاحة)

الأذن هى التى تستقبل الألفاظ ، وتعمل على ترجمتها بما فيها من شعورات حساسة ، وإيصالها للمخ ، ولا شك أنها تشعر بالطيب الحسن، وكذلك بالثقيل الكريه ، وعن ذلك يقول ابن الأثير " الألفاظ تجرى من السمع مجرى الأشخاص من البصر ، فالألفاظ الجزلة تتخيل فى السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار ، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوى دماثة ، ولين أخلاق ، ولطافة مزاح ، ولهذا ترى ألفاظ أبى تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم ، وتأهبوا للطراد ، وترى ألفاظ البحترى كأنها نساء حسان عليهن غلائل مُصْبَغات ، وقد تحلَّيْنَ بأصناف الحُلَى ". (٩٦)

ويقول أبو هلال العسكرى " والسمع يتشوف للصواب الرائع ، ويتروى عن الجهير الهائل ". (٩٧)

شروط فصاحة المفرد

علماء البلاغة اشترطوا لفصاحة المفرد أن يخلو من الكراهة فى السمع ، فهذا الخطيب القزوينى يقول " فصاحة المفرد : خلوصه من الكراهة فى السمع ، بأن يكون اللفظ ، بحيث يمجه السمع ، ويتبرأ عن سماعه ، نحو : " الجرشى " فى قول أبى الطيب :

مبارك الاسم أغر اللقب كريم الجرشي شريف النسب

---

(٩٦) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير ١/١٩٥ تحقيق د / أحمد الحوفى ، د/ بدوى طبانة . طبع دار نهضة مصر .

(٩٧) الصناعتين صـ ٧١ نشر دار الكتب العلمية سنة ١٩٧١م .

الجرشي : أي النفس (٩٨)

ويقول أحمد مصطفى المراغى " الكراهة فى السمع : هى أن تمج الكلمة الأسماع ، وتأنف منها الطباع ، لوحشيتها ، وغلظها ، كالجرشى بمعنى النفس(٩٩)".

ويقول الشيخ أكمل الدين البابرتى " إن جودة الذهن وسلامة الطبع لا يفيدان فى معرفة الفصيح عن غيره ، بل لابد لهما من ممد من جهة السماع ".(١٠٠)

وهذا ما يصوره الخفاجى حيث يقول " تجد لتأليف اللفظة فى السمع حسنا ، ومزية على غيرها ، وإن تساويا فى التأليف من الحروف المتباعدة ، كما أنك تجد لبعض النغم والألوان حسناً يتصوَّر فى النفس ، ويُدْرَك بالبصر والسمع دون غيره ، مما هو من جنسه ، كل ذلك لوجه يقع التأليف عليه ، ومثاله فى الحروف ــ ع ذ ب ــ فإن السامع يجد لقولهم " العَذِيب " اسم موضوع ، و" عَذِيبَةٌ " اسم امرأة ، وعَذْب ، وعَذَاب ، وعَذَب ، وعذبات ، ما لا يجده فيما يقارب هذه الألفاظ فى التأليف ، وليس سبب ذلك بعد الحروف فى المخارج فقط ، ولكنه تأليف مخصوص مع البعد ، ولو قدمت الذال ، أو الباء ،

---

(٩٨) مختصر المعاني وهو الشرح الصغير على متن تلخيص المفتاح للخطيب القزويني ص ٩ تأليف الأستاذ مسعود بن عمر المشهور بالتفتازاني طبع محمد علي صبيح وأولاده .

(٩٩) علوم البلاغة صـ ٢٠ طبع المكتبة المحمودية التجارية الطبعة السادسة .

(١٠٠) شروح التلخيص للشيخ أكمل الدين البابرتى صـ ١٦١ تحقيق محمد مصطفى رمضان طبع المنشأة العامة للنشر والتوزيع ــ ليبيا سنة ١٩٨٣م .

يجد الحس على الصفة الأولى في تقدم العين على الدال لضرب من التأليف في النغم يفسده التقدم والتأخير ، وليس يخفى على أحد من السامعين أن تسمية الغصن غصناً ، أو فنناً أحسن من تسميته عسلوجاً ، وأن أغصان البان ، أحسن من عساليج الشوحط في السمع " . (١٠١)

الأسباب المؤدية لكراهية السمع ومناقشتها

وعلى الرغم من إجماع علماء البلاغة على أن السمع له أثره فى تحديد المفردة الفصيحة من غيرها ، فإنهم اختلفوا فى الأسباب المؤدية إلى كراهة السمع للألفاظ ، فهذا سعد الدين التفتازانى يورد رأيين : إحداهما يفسرها بالغرابة والآخر يفسرها بطيب النغم وعدمه حيث يقول " الكراهة فى السمع إنما هى من جهة الغرابة المفسرة بالوحشية ، مثل " تكأكأتم " و " افرنقعوا " ، ومثل ذلك . وقيل ، لأن الكراهة فى السمع وعدمها يرجعان إلى طيب النغم ، وعدم المطيب لا إلى نفس اللفظ ، وفيه نظر للقطع باستكراه الجرشى ، دون النفس ، مع قطع النظر عن النغم " (١٠٢) .

وهو بهذا يرى أن السبب فى استكراه السمع لبعض الألفاظ راجع لغرابتها ووحشيتها ، لا إلى النغم فيها ، ويؤكده أيضاً الشيخ أكمل الدين البابرتى حيث يقول " إنا لا نسلم انتفاء الفصاحة منه ، ولئن سلم فإنه يكون

---

(١٠١) سر الفصاحة لأبى محمد الخفاجى صـ ٥٥ شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدى طبع مكتبة محمد على صبيح سنة ١٩٦٩م .

(١٠٢) مختصر المعانى على متن تلخيص المفتاح صـ ٩ .

من قبيل التنافر ، وما ذكره أن استكراه السمع للفظ يرجع إلى النغم ، فكم من لفظ غير فصيح لا يستكرهه السمع إذا أدى بنغم طيب ، وكم من لفظ فصيح يستكرهه السمع إذا أدى بصوت منكر ، ولا نسلم أن استنكار " الجرشى " لأن السمع يستكرهه ، بل لأنه غريب وحشى ، وقد مر وجه آخر " . (١٠٣)

وأحمد مصطفى المراغى : يرى أن الغرابة كانت تكفى عن إيراد هذا الشرط فى فصاحة المفرد حيث يقول " لكن البصير بصفة الكلام يعلم أن استثقال الطبع لما يسمع ، إنما يتصور من جهة غرابة الكلمة ووحشيتها ، ففى ذكر الغرابة غنية عن ذكرها" (١٠٤) والملاحظ فى هذه الآراء التى استنكرت أن يكون السمع هو الذى يدرك حسن الألفاظ وقبحها ، وأجمعت على أن السبب هو غرابتها ، أو وحشيتها أو تنافر حروفها ، أنها تناست أن الغرابة فى الألفاظ ليست صفة لازمة فيها ، وإنما هى صفة عرضية تأتى من غموض معناها لدى المتلقين أو السامعين لها ، وقدعرفت الغرابة بأنها: تلك الألفاظ الغامضة البعيدة من الفهم لقلة استعمالها(١٠٥) ، أما وحشيتها وتنافر حروفها التى قد تجتمع مع غرابة معناها فهى التى تشعرنا بعدم الارتياح لها ، والنفور منها فى السمع كما أنهم فسروا النغم فى الأصوات كأنه غناء ، أو بأنه نطق مخصوص، وعن ذلك يقول سعد الدين التفتازانى : " وأما توجيه النظر بأن الكراهة فى السمع ليست إلا من قبيح الصوت ، فلو احترز عنها ، خرج كثير من الكلمات اتفق على

---

(١٠٣) شرح التلخيص للشيخ أكمل الدين البابرتى صـ ١٣٧ .

(١٠٤) علوم البلاغة صـ ٢٠ .

(١٠٥) انظر التعريفات المختلفة للغرابة كتاب الغرابة فى الحديث النبوى للدكتور عبد الفتاح البركاوى ص ٢٩ وما بعدها.

فصاحتها بسبب نطق خشن الصوت بها ، فهو مردود ، بأنه لو كان المراد كذلك لزم كون " الجوشى " غير مكروه فى السمع إلا عند نطق خشن الصوت ، وليس كذلك فإنا نقطع بكراهته دون مرادفه ، الذى هو النفس ، وإن نطق به جميل الصوت " . (١٠٦)

ولقد تنبه إلى ذلك الدكتور محمد على رزق الخفاجى حيث يقول: بعد أن عرض آراء البلاغيين فى شرط الخلوص من الكراهة فى السمع : " ونلاحظ خلال هذا العرض السريع لآراء البلاغيين بعد الخفاجى أنهم يقيمون اعتراضهم على شرط الخلوص من الكراهة فى السمع على كلمة " الجوشى " ، فلقد انصب أكثر الحديث على هذه الكلمة ، ولم يناقشوا الكراهة نفسها ، وأرجعت الكراهة فى كلمة الجوشى إلى الغرابة التى ترجع إلى الوحشية ، ولم يرجعوا الكراهة فيها إلى السمع ، والنغم ، لأن النغم قد يتوافر في الكلمة غير الفصيحة ، وفى رأينا أن هذا ممكن حدوثه ، لكنه لا يعنى أننا ننكر الأثر المترتب على ما يسمى بالجرس المتعلق بالكلمات ، ومعنى هذا أننا لا نقول بمطلق الحسن ولا بمطلق الكراهية فى السمع ، وإنما نرد ذلك إلى المقام ، وإلى وسيلة الأداء، أى أن الكلمة التى قد تحسن فى مقام قد تكره فى الأذن فى مقام آخر ، والعكس صحيح ، كما أن الكلمة قد تحسن ، وقد تقبح بسبب طريقة أدائها ، فالقبح والحسن لا يخلوان من النسبية ، لأن مردهما أخيراً إلى الذوق " (١٠٧)

---

(١٠٦) مختصر العلامة سعد الدين التفتازانى على تلخيص المفتاح للخطيب القزوينى جـ ١ صـ ٧٨ طبع بمطابع محمد على صبيح سنة ١٣٤٧هـ .

(١٠٧) علم الفصاحة العربية د / محمد على رزق الخفاجى صـ ١١٣ ـ ١١٤ طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٢م.

وقد أدرك أبو هلال العسكرى أن قبول الألفاظ ، وفهمها ، يرجع إلى إلف سماعها فيقول " ونحن نفهم رطانة السوقى ، ومجمجة الأعجمى ، للعادة التى جرت لنا فى سماعها ، لا ، لأن تلك بلاغة ألا ترى أن الأعرابى إن سمع ذلك لم يفهمه إذ لا عادة له بسماعه". (١٠٨)

ويقول فى موطن آخر " سمع أعرابى قصيدة أبى تمام " .

طلل الجميع لقد عفوت حميداً.

فقال إن فى هذه القصيدة أشياء أفهمها ، وأشياء لا أفهمها ، فإما أن يكون قائلها أشعر من جميع الناس ، وإما أن يكون جميع الناس أشعر منه ، ونحن نفهم معانى فى هذه القصيدة بأسرها ؛ لعادتنا بسماع مثلها ، لا لأنا أعرف بالكلام من الأعراب " . (١٠٩)

ويوضح فى موطن ثالث أن المقام ـ أحياناً ـ هو الذى يحدد ما يستخدم من الألفاظ حيث يقول " إن النبى ـ ﷺ ـ لما أراد أن يكتب إلى أهل فارس ، كتب إليهم بما يمكن ترجمته ، فكتب : من محمد رسول الله إلى كسرى إبرويز عظيم فارس : " سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله ، فأدعوك بداعية الله ، فإنى أنا رسول الله إلى الخلق كافة ، لينذر من كان حياً ، ويحق القول على الكافرين ، فاسلم تسلم ، فإن أبيت فإثم المجوس عليك " .. فسهل ـ ﷺ ـ الألفاظ كما ترى غاية التسهيل ، حتى لا يخفى منها شئ على من له أدنى معرفة فى العربية .

---

(١٠٨) الصناعتين صـ ٢٠ .

(١٠٩) السابق صـ ٢٠ ، ٢١ .

ولما أراد أن يكتب إلى قوم من العرب فحم اللفظ لما عرف فضل فهمهم على فهمه ، وعادهم لسماع مثله ... فكتب لوائل بن حجر الحضرمي ... من محمد رسول الله إلى الأقيال العاهلة من أهل حضرموت بإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، على النعة والشاة ، والتيمة لصاحبها ، وفي السيوب الخمس ، لا خلاط ، ولا وراط ، ولا شناق ، ولا شغار ، ومن أجبى فقد أربى ، وكل مسكر حرام " .(١١٠)

والرسول صلوات الله وسلامة عليه أفصح العرب :

ابن الأثير وتأكيده على أن السمع هو الأساس في قبول الألفاظ ومجها :

ويوضح ابن الأثير بعد أن أورد حديث طهفة بن أبي زهير النهدي وخطبته بين يدى النبي — ﷺ — ورد النبي — ﷺ — عليه ، وما في الخطبتين من ألفاظ وعرة وصعبة وغريبة ، بقوله " وفصاحة رسول الله — ﷺ — لا تقتضي استعمال هذه الألفاظ ، ولا تكاد توجد في كلامه إلا جواباً لمن يخاطبه بمثلها ، كهذا الحديث ، وما جرى مجراه ، على أنه قد كان في زمنه متداولا بين العرب ، ولكنه — ﷺ — لم يستعمله إلا يسيراً ،

---

(١١٠) الصناعتين صـ ١٧٢ ، الأقيال ، الملوك ، العاهلة : المقرون على ملكهم لم يزالوا عنه . النعة : أدنى ما تجب فيه الصدقة من الحيوان . التيمة : الشاة الزائدة على الأربعين حتى تبلغ الفريضة الأخرى . السيوب : الركاز ، الخلاط : اختلاط الإبل. الشناق : ما بين الفريضتين في الزكاة ، الوارط : الجمع بين متفرق الشغار: نوع من الزواج غير المشروع . الإجبار : المواراة وعدم الإظهار .أنظر لسان العرب المواد (قيل . عبل ، تبع ، تيم ، سيب ، خلط ، شنق ، ورط ، شغر)

لأنه أعلم بالفصيح والأفصح .

وهذا الكلام هو الذي نعتده نحن في زماننا وحشياً ، لعدم الاستعمال ، فلا نظن أن الوحشي من الألفاظ ما يكرهه سمعك ، ويثقل على لسانك النطق به ، وإنما هو الغريب الذي يقل استعماله ، فتارة يخف على سمعك ، ولا تجد منه كراهة ، وتارة يثقل على سمعك ، وتجد منه الكراهة ، وذلك في اللفظ على إحداهما : أنه غريب الاستعمال ، والآخر : أنه ثقيل على السمع ، كريه على الذوق .

وإذا كان اللفظ بهذه الصفة فلا مزيد على فظاظته وغلاظته ، وهو الذي يسمى " الوحشي الغليظ ، ويسمى أيضاً " المتوعر " ، وليس وراءه في القبح درجة أخرى ... فإن قيل : فما هذا النوع من الألفاظ ؟ قلت : قد لبث لك أنه ما كرهه سمعك ، وثقل على لسانك النطق به " .(١١١)

وقد أوضح ابن الأثير في هذا النص أن المقام يقتضي — أحياناً — استخدام الألفاظ الغريبة ، وأن غرابة الألفاظ ناتجة لعدم إلف الأذن لها ، فإذا كثر طرقها للأذن خفت ، وأصبحت مألوفة ، وإذا أهملت وتركت توحشت وثقلت ، ومجها الذوق ، ونكرتها ، الأذن ، ولذلك عندما عرف اللفظ الوحشي الغليظ قال " أنه ما كرهه سمعك ، وثقل على لسانك النطق به " .

ويؤكد ابن الأثير هذا في موضع آخر حيث يقول " الفصيح من الألفاظ هو الظاهر البين ، وإنما كان ظاهراً بيناً ، لأنه مألوف الاستعمال ، وإنما كان

---

(١١١) المثل السائر ١/ ١٨٠ — ١٨١ .

مألوف الاستعمال لمكان حسنه ، وحسنه مدرك بالسمع ، والذى يدرك بالسمع إنما هو اللفظ ، لأنه صوت يأتلف من مخارج الحروف ، فما استلذه السمع منه فهو الحسن ، وما كرهه فهو القبيح ، والحسن هو الموصوف بالفصاحة ، والقبيح غير موصوف بفصاحة " (١١٢)

ويوضح فى موطن آخر أن السمع هو الحكم فى بيان الحسن والقبح فى الألفاظ ، وذلك من خلال الأمثلة حيث يقول " إن هذا من الأمور المحسوسة ، التى شاهدها من نفسها ، لأن الألفاظ داخلة فى حيز الأصوات ، فالذى يستلذه السمع منها ، ويميل إليه هو الحسن ، والذى يكرهه وينفر عنه هو القبيح ، ألا ترى أن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير ، وصوت الشحرور ، ويميل إليهما ، ويكره صوت الغراب وينفر عنه وكذلك يكره نهيق الحمار ، ولا يجد ذلك فى صهيل الفرس ؟ والألفاظ جارية هذا المجرى ، فإنه لا خلاف فى أن لفظة " المزنة " و " الديمة " حسنة يستلذها السمع وأن لفظة " البعاق " قبيحة يكرهها السمع ، وهذه اللفظات الثلاثة من صفة المطر ، وهى تدل على معنى واحد .... ولو كانت الفصاحة لأمر يرجع إلى المعنى لكانت هذه الألفاظ فى الدلالة عليه سواء ، ليس منها حسن ، ومنها قبيح ، ولما لم يكن كذلك علمنا أنها تخص اللفظ دون المعنى " . (١١٣)

ويرد ابن الأثير على ابن سنان الخفاجى فى اشتراطه أن تكون الكلمة متباعدة المخارج ، ويقول إن العلم بحسن الألفاظ وقبحها سابق لعلم المتباعد من الحروف والمتقارب منها ، ولو أن الكاتب ناظما كان أو ناثراً راعى فى

(١١٢) المثل السائر ١ / ٩٢ .

(١١٣) المثل السائر ١ / ٩١ ــ ٩٢ .

تأليف الكلام بعد المخرج لطال به الأمد ، وإنما الحكم فى ذلك راجع إلى السمع إذ هو الذى يحدد الحسن والقبيح منها ، وعن ذلك يقول " لو أراد الناظم ، أو الناثر أن يعتبر مخارج الحروف عند استعماله الألفاظ ، وهل هى متباعدة ، أو متقاربة ، لطال الخطب فى ذلك وعسر ، ولما كان الشاعر ينظم قصيداً ، ولا الكاتب ينشئ كتاباً إلا فى مدة طويلة تمضى عليها أيام وليالى ذوات عدد كثير ، ونحن نرى الأمر بخلاف ذلك ، فإن حاسة السمع هى الحاكمة فى هذا المقام بحسن ما يحسن من الألفاظ ، وقبح ما يقبح .... فحسن الألفاظ إذن ليس معلوماً من تباعد المخارج ، وإنما علم قبل العلم بتباعدها ، وكل هذا راجع إلى حاسة السمع ، فإذا استحسنت لفظاً وجد ما تستحسنه متباعد المخارج، وما تستقبحه متقارب المخارج ، واستحسانها واستقباحها إنما هو قبل اعتبار المخارج ، لا بعدد " . (١١٤)

وأضيف لو أن الناظم ، أو الناثر راعى عند تأليفه المتباعد من الحروف ، والمتقارب منها ، لطلب منه أن يكون على معرفة تامة بمخارج الحروف وصفاتها ، وهذا ما لا يتوفر فى العديد منهم ، ولكن يحدد الحسن والقبيح منها من خلال مروره على سمعه ، وأن يتقبلها ذوقه .

وأوضح ابن الأثير عدم اطراد هذه القاعدة بالمثال حيث يقول " على أن هذه قاعدة قد شذ عنها شواذ كثيرة ؛ لأنه قد يجئ فى المتقارب المخارج ما هو حسن رائق . ألا ترى أن الجيم والشين والياء مخارج متقاربة ، وهى من وسط اللسان بينه وبين الحنك ، وتسمى ثلاثتها "الشجرية " وإذا تركب منها شئ من الألفاظ جاء حسناً ، فإن قيل "جيش " كانت لفظة محمودة ، أو قدمت

(١١٤) المثل السائر ١ / ١٧٣ .

الشين على الحيم فقيل " شجى " كانت أيضاً لفظة محمودة ، ومما هو أقرب من ذلك الباء والميم والفاء ، وثلاثتها من الشفة ، وتسمى " الشفهية " فإذا نظم منها شئ من الألفاظ كان جميلاً حسناً كقولنا " فم " فهذه اللفظة من حرفين هما الفاء والميم، وكقولنا " ذقته يفمى " وهذه اللفظة مؤلفة من الثلاثة بجملتها ، وكلاهما حسن لا عيب فيه ، وقد ورد من المتباعد المخارج شئ قبيح أيضاً ، ولو كان التباعد سبباً للحسن لما كان سبباً للقبح ، إذ هما ضدان لا يجتمعان ، فمن ذلك أنه يقال " ملع " إذا عدا ، فالميم من الشفة ، والعين من حروف الحلق ، واللام من وسط اللسان ، وكل ذلك متباعد، ومع هذا فإن هذه اللفظة مكروهة الاستعمال ينبو عنها الذوق السليم ، ولا يستعملها من عنده معرفة بفن الفصاحة " . (١١٥)

وعن تركيب الكلام ، وإصداره يقول مصطفى صادق الرافعى "فكان العرب يترسلون أو يحذمون ــ أى يسرعون ــ فى منطقهم كيفما اتفق لهم لا يراعون أكثر من تكييف الصوت دون تكييف الحروف التى هى مادة الصوت ، إلى أن يتفق من هذه قطع فى كلامهم تجئ بطبيعة الغرض الذى تكون فيه ، أو بما تعمل لها المتكلم ، على نمط من النظم الموسيقى ، إن لم يكن فى الغاية ، ففيه ما عرفوه من هذه الغاية " . (١١٦)

بنية الكلمة وأثرها فى الفصاحة وآراء العلماء فى ذلك :

وقد أورد علماء البلاغة أن من فصاحة الكلمة أن تكون مؤلفة من أقل

(١١٥) المثل السائر ١ / ١٧٣ ــ ١٧٤ .

(١١٦) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية تأليف مصطفى صادق الرافعى صـ ٢٤٢ طبع مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٣٧٥هـ الطبعة الساسة .

الأوزان تركيباً ، لتخف على اللسان وعلى السمع " ومن الفصاحة الإتيان باللفظة المؤلفة من أقل الأوزان تركيباً ، وذلك أن الكلمة إذا تركبت من حروف قليلة خفت على الناطق بها ، بخلاف ما إذا كانت مؤلفة من حروف كثيرة فإنه يثقل النطق بها على اللسان ، وعلى السماع ، مثال ذلك إذا عدل القائل عند وصف الماء الطيب عن قوله " عذب " إلى قوله " سلسل " كانت لفظة " عذب " أحسن من "سلسل " وأقل حروفاً ، وإذا عدل القائل عن لفظة " ذهب " إلى لفظة " عسجد " كانت لفظة " ذهب " أحلى وأرشق ، وإذا عدل الواصف للمرأة الشديدة عن لفظة " صعبة " إلى لفظة " صهصلق " كانت لفظة "صعبة " أرشق من لفظة " صهصلق .. .. " . (١١٧)

لا شك أن طول الكلمة فى بنيتها يضفى عليها نوعاً من الثقل فى النطق ، ولذلك اشترطت العربية إذا كانت الكلمة خماسية أو سداسية المبنى أن تحتوى على حرف من حروف الذلاقة والشفهية(١١٨) المجموعة فى قوله " مر بنفل ، وذلك لخفتها ورشاقتها ، فتعمل على التخفيف من طول الكلمة ، ولكن لم يكن طول الكلمة ــ دائماً ــ ناقضاً لفصاحة اللفظ ، أو مؤدياً إلى الثقل النطقى ، والسمعى ، وإنما يعود ذلك إلى تألف الحروف بعضها مع بعض ، ولذلك يقول ابن الأثير " وهذا لا يعتبر فيه طول ولا قصر ، وإنما يعتبر نظم تأليف الحروف

(١١٧) جوهر الكنز لنجم الدين بن الأثير الحلبى صـ ٤٠ ، ٤١ تحقيق د / محمد زغلول سلام طبع منشأة المعارف بالإسكندرية .

(١١٨) ربما اكتفى بعض العلماء بأن حروف " مر بنفل " كلها ذلقية أى تخرج من ذلق اللسان أى طرفه وهذا نوع من التسامح أو إطلاق الجزء وإرادة الكل ، وذلك لأن الباء والميم من الحروف الشفهية لا الذلقية .

بعضها مع بعض " .[١١٩]

ويرد على ابن سنان الخفاجى فى هذا الجانب حيث يقول " ومن أوصاف الكلمة أن تكون مؤلفة من أقل الأوزان تركيباً ، وهذا مما ذكره ابن سنان فى كتابه ، ثم مثله بقوله أبى الطيب المتنبى .

إن الكرام بلا كرام منهم ∴ مثل القلوب بلا سويداواتها

وقال إن لفظة " سويداواتها " طويلة فلهذا قبحت ، وليس الأمر كما ذكره ، فإن قبح هذه اللفظة لم يكن بسبب طولها ، وإنما هو لأنها فى نفسها قبيحة ، وقد كانت وهى مفردة حسنة ، فلما جمعت قبحت ، لا بسبب الطول ، والدليل على ذلك أنه قد ورد فى القرآن الكريم ألفاظ طوال ، وهى مع ذلك حسنة ، كقوله تعالى : " فسيكفيكهم الله " [١٢٠] فإن هذه اللفظة تسعة أحرف ، وكقوله تعالى : " ليستخلفنهم فى الأرض " [١٢١] فإن هذه اللفظة عشرة أحرف ، وكلتاهما حسنة رائقة ، ولو كان الطول مما يوجب قبحاً لقبحت هاتان اللفظتان ، وليس كذلك " .[١٢٢]

ومن عجائب هذه اللغة أن بعض الألفاظ إذا جاء مفرداً كان حسناً ، وإذا ثنى أو جمع ثقل على السمع والذوق ، وقد أورد ابن الأثير من هذا النوع " لفظة " الأخدع " وردت فى بيتين من الشعر ، وهى فى أحدهما حسنة رائقة ؛

---

(١١٩) المثل السائر ١ / ٢٠٥ .

(١٢٠) سورة البقرة : ١٣٧ .

(١٢١) سورة النور : ٥٥ .

(١٢٢) المثل السائر ١ / ٢٠٤ .

لكونها مفردة ، وفى الآخر ثقيلة مستكرهة ؛ لأنها مثناة ومن الأول قول الصمة بن عبد الله من شعراء الحماسة .

تلفت نحو الحى حتى وجدتنى ∴ وجعت من الإصغاء ليتا وإخدعا

ومن الثانى قول أبى تمام :

يا دهر قوم من أخدعيك فقد ∴ أضججت هذا الأنام من خرقك

ألا ترى أنه وجد لهذه اللفظة فى بيت أبى تمام من الثقل على السمع ، والكراهة فى النفس أضعاف ما وجد لها فى بيت الصمة بن عبد الله من الروح والخفة والإيناس والبهجة ؟ وليس سبب ذلك إلا أنها جاءت موحدة فى أحدهما مثناة فى الآخر ، وكانت حسنة فى حالة الإفراد مستكرهة فى حال التثنية ، وإلا فاللفظة واحدة ، وإنما اختلاف صيغتها فعل بها ما ترى " .[١٢٣]

وعن الإفراد والجمع أورد ابن الأثير " وكذلك لفظة " طيف " فى ذكر طيف الخيال ، فإنها لم تستعمل إلا مفردة ، وقد استعملها الشعراء قديماً وحديثاً فلم يأتوا بها إلا مفردة ، لأن جمعها جمع قبيح ، فإذا قيل "طيوف " كان من أقبح الألفاظ وأشدها كراهة على السمع .

ويا لله للعجب من هذه اللفظة ومن أختها عدة ووزنا ، وهى لفظة " ضيف " فإنها تستعمل مفردة ومجموعة ، وكلاهما فى الاستعمال حسن رائق ، وهذا مما لا يعلم السر فيه ، والذوق السليم هو الحاكم فى الفرق بين هاتين اللفظتين وما يجرى مجراهما " .[١٢٤]

---

(١٢٣) المثل السائر ١ / ٢٩٦ ــ ٢٩٧ .

(١٢٤) المثل السائر ١ / ٢٩٩ .

توالي الحركات ونوعها وأثرها فى الفصاحة وآراء العلماء فى ذلك

وأورد علماء البلاغة " ومن الفصاحة أن تكون الكلمة مبنية من حركات خفيفة ، ذلك أن الكلمة إذا كان فيها حركتان متواليتان ساغ قبولها فى الأسماع ، فأما إذا كانت من ثلاث حركات متواليات فى كلمة واحدة استكرهت قليلاً ، فإذا كانت أربع حركات فإها تثقل أكثر وهو المسمى بالمتكاوس فى علم القوافى " . (١٢٥)

ويرى ابن الأثير أن ذلك ليس مطرداً فى اللغة ، بل إنه ورد فى اللغة توالى حركة الضم فى كلمة واحدة ، والتى استثقل العلماء توالى حركتان منها فى كلمة واحدة حيث يقول : " وأعلم أنه قد توالت حركة الضم فى بعض الألفاظ ، ولم يحدث فيها كراهة ولا ثقلاً .. .. كقول أبى تمام .

نفس يحتثه نفس ∴ ودموع ليس تحتبس

ومغان للكرى دثر ∴ عطل من عهده درس

جهرت ما كنت اكتمه ∴ ناطقات بالهوى خرس

فانظر كيف جاءت هذه الألفاظ الأربعة مضمومات كلها ، وهى مع ذلك حسنة لا ثقل بها ، ولا ينبو السمع عنها !! " . (١٢٦)

نخلص من هذا بأن السمع له دور رئيس فى فصاحة الكلمة ، وفى الحكم

---

(١٢٥) جواهر الكنز تأليف نجم الدين بن الأثير الحلبى ص ٤١ تحقيق محمد زغلول سلام ، طبع منشأة المعارف بالإسكندرية .

(١٢٦) المثل السائر ١ / ٢٠٧ ــ ٢٠٨ .

على حسنها وقبحها ، فاللفظ وحشى إذا لم تألف الأذن سماعه ، وقد قال العلماء إن طول الكلمة فيه من الثقل ما يخرج الكلمة عن الفصاحة ، وقد ورد فى القرآن الكلمة من عشرة أصوات ولم تقبح، وورد فى الكلام العربى الكلمة من خمسة أصوات وقبحت ، وقالوا إن توالى الحركات يجعل اللفظ ثقيلاً ، ويبعده عن المألوف ، وقد وجدنا توالى الحركات لا يشكل ثقلاً ، وفيه من الحسن مالا يوجد فى غيره ممن اختلفت حركاته ، هذا فضلاً عن المقام ومقتضياته .

ولذلك يقول الدكتور / محمد على رزق الخفاجى " إن كثيراً من أصول الفصاحة تقوم على أسس صوتية ، وذلك كالذى يوصف به المتكلم الفصيح كالجهارة ، أو البروز ، والطلاقة ، وما يعاب به المتكلم كالتشدق ، والتمتمة ، والخنخنة ، والثغثغة ، كما تقوم الكلمة أو الكلمات الفصيحة على خصائص صوتية ، كعدم التنافر بين الحروف ، أو الكلمات ، والارتكاز ، والتنغيم ، وكذلك ما يمكن أن يكون من صلة بين أصوات الكلمات ومدلولاتها " . (١٢٧)

وبما أن للتنغيم دوره فى دلالة الألفاظ وتنوعها كان من الواجب أن نظهر دوره فى فصاحة المتكلم ، فى أنه يعين المتكلم على الإفهام والبعد عن الإبهام الذى يولد اللبس وعدم الفهم " فللتنغيم علاقة لا يمكن إهمالها بفصاحة المتكلم ؛ لأن المتكلم الفصيح يستطيع أن يستخدم التنغيم للتفريق بين المعانى المختلفة التى لا فرق بينها إلا به ، كما أنه يستخدم فى تقوية المعانى وتأكيدها " . (١٢٨) ، ونحن نعلم بأن الاستخدام اللغوى السليم يعين على فهم المعنى ، أى أن

---

(١٢٧) علو الفصاحة العربية د / محمد على رزق الخفاجى صـ ١٧٧ .

(١٢٨) علم الفصاحة العربية صـ ٢٠٠ .

استخدام القواعد النحوية والالتزام بها فى الأداء يساعد على فهم المعنى ولذلك قالوا الإعراب فرع المعنى " ، " والتنغيم فى بعض اللغات كالعربية والإنجليزية يؤدى وظيفة نحوية حيث يستعمل للتفريق بين المعانى المختلفة للجملة الواحدة ، فعبارة مثل " السلام عليكم " تنطق بتنغيم معين فتدل على التحية ، وبتنغيم ثان فتدل على التهكم والسخرية ، وبتنغيم ثالث فتفصح عن شعور بالغضب أو الرضا ، فالتنغيم يعد جزءاً من النظام النحوى للغة ، بحيث يمكن القول إنه إذا غاب التنغيم غاب النحو بالمعنى الكامل " . (١٢٩)

" وعندما لا يراعى التنغيم فى مواضع الحذف ، فإن الأمر قد يلتبس على السامع مما قد يثير الاشمئزاز ، أو الإعراض عن السماع ، ومثال ذلك ما حدث بين أبى بكر الصديق — ﷺ — وبائع مرَّ عليه ومعه ثوب ، فقال له أبو بكر : أتبيع الثوب ؟ فقال : لا عافاك الله ، فقال أبو بكر — ﷺ — لقد علمتم لو كنتم تعلمون ، قل : لا ، وعافاك الله .

ويبدوا أن الرجل الذى خاطب أبا بكر بهذه الجملة لم يراع الوقف بعد لا ، ولم يعطها حقها من التنغيم الذى يمكن الفصل به بين (لا) والجملة التى جاءت بعدها لغرض الدعاء ، ولو كان الرجل قد استعمل التنغيم فى جملته ، أى راعى التنغيم والوقف بعد (لا) ، لما دفع أبا بكر الصديق إلى نصحه بوضع الواو التى تفصل بين النفى وجملة الدعاء ، فعدم مراعاة التنغيم فى كلام ذلك الرجل قد يوهم بتحويل المعنى من الدعاء له ، للدعاء عليه " .

---

(١٢٩) علم اللغة بين التراث والمعاصرة د/ عاطف مدكور ص ١٣١ ص طبع دار الثقافة للنشر والتوزيع بالقاهرة سنة ١٩٨٧م.

(١٣٠)ـ ومما يدل على أن التنغيم يعمل على إبعاد اللبس والإبهام والفهم الخاطئ ، قول الشاعر الجاهلى الحارث بن وعلة الجرمى .

قومى هم قتلوا أميم أخى ... فإذا رميت يصيبنى سهمى

" فنلاحظ أن حذف أداة النداء مع ترخيم " أميمة " فى بيت الحارث بن وعلة قد جعل البعض يتوهمون أن كلمة " أميم " مفعول به، وهو ما يغير المعنى الذى قصده الشاعر ، والتنغيم فى هذه الحالة ضرورى لإفهام السامع أن كلمة " أميم " الواردة فى البيت منادى بأداة نداء محذوفة " . (١٣١)

ولا يمكن أن ينكر السامع العلاقة بين التنغيم والعاطفة والانفعال، إذ إن التنغيم يعطى الألفاظ معان عدة تتوافق مع الحدث فيجعل السامعين يتفاعلون مع الحدث ولذلك : " نلاحظ أن التنغيم يلعب دوراً كبيراً فى فصاحة الخطباء والوعاظ والممثلين ؛ لأن كلامهم يقصد به التأثير فى المستمعين ، وهذا التأثير يعتمد إلى حد كبير على التلوين الصوتى الذى يجب أن تصطبغ به كلماتهم ، حتى يرتقى بالانفعال الذى يرجى نموه بين المتكلمين والسامعين وكما يختلف الانفعال باختلاف المقامات ، فالتنغيم لابد أن يختلف — أيضاً — تبعاً لذلك". (١٣٢)

" وخلاصة القول إن العلاقة بين الفصاحة والتنغيم تتمثل فى الخلوص من الإبهام الذى يؤدى إلى ما يعرف بالتعقيد المعنوى ، كما تتمثل العلاقة —

---

(١٣٠) علم الفصاحة العربية صـ ١٩٩ .

(١٣١) علم الفصاحة العربية صـ ١٩٨ ـ ١٩٩ .

(١٣٢) السابق صـ ١٩٦ .

أيضاً ـــ فيما يتعلق بالنسق الموسيقى الذى قد يصاحب الألفاظ عند ملازمتها للتنغيم ، فالنغمات الهابطة ، أو الصاعدة ، والواسعة والضيقة تساعد عند تلاؤم الكلمات مع معانيها على حسن الوقع فى السمع ، والعذوبة والسلاسة ، والطلاقة على اللسان ". (١٣٣)

السمع والدراسات الصوتية

من المعلوم أن الصوت : هو الهواء المتموج الخارج من الرئتين ، ويحمله الهواء إلي الأذن ، وعن طريق الأذن تتم ترجمة هذا الصوت ، وعلي ذلك فالصوت يحتاج الي ثلاث مراحل : مرحلة المُرسل ، وهي جهاز النطق ، ومرحلة الوسيط ، وهو الهواء الناقل ، و مرحلة المُستَقْبِل ، وهو الأذن ، إذن الدراسة الصوتية يلزمها دراسة مرحلة المُستَقْبِل " أما ثالث المسائل الرئيسية التي علي علم الأصوات اللغوية أن يدرسها ، فهو استقبال أذن السامع للصوت ، أو الدور الذي تقوم به طبلة أذن السامع لاستقبال الصوت". (١٣٤)

و المتأمل للدراسة الصوتية يجد أن جُل بحوثها قائم علي الحاسة السمعية " فعلم الأصوات دراسة عملية لموضوع مُدْرَك بالحواس ؛ لأن حاسة النظر تري من حركات الجهاز النطقي حركة الشفتين ، والفك الأسفل ، وبعض حركات

---

(١٣٣) علم الفصاحة العربية صـ ٢٠٠ .

(١٣٤) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي د/ محمود السعران ص ١٠٠ طبع دار النهضة العربية للطباعة والنشر – لبنان

اللسان ، ثم تري كذلك بعض الحركات المصاحبة التي تقوم بها عضلات الوجه ، وحاسة السمع تدرك الآثار السمعية المصاحبة لهذه الحركات العضوية ، فتميز انحباس الهواء ، وتسريحه ، بعد انحباسه واحتكاكه بأعضاء الجهاز النطقي ، بسبب تضييق المجرى أو غلقه عند نقطة معينة من هذا الجهاز ، وحرية مرور الهواء عند عدم الحبس ، والتضييق ، واختلاف قيمة الصوت عند اختلاف شكل حجرة الرنين،وكون النطق مجهوراً حيناً ومهموساً حيناً آخر". (١٣٥) " لقد قسم العلماء الأصوات الإنسانية إلى صوائت ، وصوامت وهذا التقسيم مبنى فى الواقع على اعتبارات عديدة من أهمها الاعتبارات السمعية المتمثلة فى الاختلاف بين الأصوات فى وضوحها فى السمع ، فقد لوحظ أن بعض الأصوات أشد وضوحاً فى السمع من بعض ، بمعنى أنها تُسمع على مسافة أبعد عندما تنطلق بنفس الطول ، والارتكاز ، والدرجة ، والملاحظ أن الأصوات التى توسم بأنها صوائت أشد وضوحاً فى السمع من غيرها من الأصوات الكلامية – عندما تنطق بالطريقة العادية – وهذا هو السبب الذى من أجله اعتبرت هذه الأصوات طبقة من الطبقتين الرئيسيتين". (١٣٦)

---

(١٣٥) اللغة العربية معناها و مبناها د/ تمام حسان ص ٤٨ طبع الهيئة العامة للكتاب بمصر سنة ١٩٧٩م.

(١٣٦) علم اللغة مقدمة للقارئ العربى د/محمود السعران ص ١٥٠، وهناك أسس أخرى فسيولوجية وفيزيائية ووظيفية لهذا التقسيم أنظرها مفصلة فى مقدمة فى أصوات اللغة العربية للدكتور عبد الفتاح البركاوى ص ٦٥.

أي إن الدراسة الصوتية عند الرواد و الهواة القدماء [illegible]
المنطوقة" ويلاحظ على الآراء الصوتية لقدماء الرواد ، وأن [illegible] في قديما على ملاحظات الآثار السمعية التي تتركها الأصوات في الأذن ، ولكن سرعان ما تغير في الآراء الصوتية لقدماء [illegible] والعصر الحاضر أثر [illegible] الأساس "الفسيولوجيا" في تكوين الأصوات المختلفة " (١٣٧) والواضح أن الاعتماد على التأثيرات الصوتية يوقعنا في معرفة عدد الوحدات الصوتية ، من أين تبدأ ؟ وأين تنتهي ؟ والفترة الزمنية التي تستغرقها ولا يمكن توضيح الشكل من خلال الملاحظة البصرية لأعضاء النطق ، فيمكن التمييز بين [illegible] متشابهة إذا انعدم السمع ، وعن ذلك يقول فيرث " إن كثيراً من علماء الأصوات يعكفون على دراسة علم النطق ، أعني إنتاج الأصوات بواسطة الأعضاء والحلق والفم ... إلخ ، ويغفلون عن الجانب السمعي ، وهذا النوع غير صحيح ، لأن التأثير الواقع على الأذن هو الأساس الطبيعي لكل نظرية ... وهذا العنصر السمعي يوجد بصورة لا شعورية عندما نبدأ في النظر إلى الوحدات الفونولوجية ، ذلك أننا بواسطة الأذن نعرف ماذا يكون صوت "با" أو "ب" مثلا ، و لو أننا استطعنا أن نسجل فيلماً سينمائياً لجميع حركات الفم والحلق ، في أثناء نطق سلسلة من الأصوات ، فربما كان من المستحيل أن نكشف عن الانقسامات في هذا التتابع من الحركات المنطوقة ، فلا نعرف متى يبدأ صوت معين ، ولا أين ينتهي الآخر" (١٣٨)

---

(١٣٧) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي د/ محمود السعران ص ٨٨.

(١٣٨) في علم اللغة العام/عبد الصبور شاهين ص ١١٧ طبع مؤسسة الرسالة سنة ١٩٨٤م.

[illegible] (١٣٩)

[illegible] (١٤٠)

أما نظرية [illegible] في تقسيم الأصوات إلى [illegible] ، أو الأصوات الساكنة وأصوات اللين [illegible] وهذا ما توصل إليه [illegible] أن الأصوات الساكنة [illegible] أصوات اللين [illegible] ، وهو نسبة وضوح الصوت في السمع " (١٤١) يلاحظ أن [illegible]

---

(١٣٩) السابق ص ١١٩.

(١٤٠) علم اللغة بين التراث و المعاصرة د/ عاطف مدكور ص ١١٣.

(١٤١) الأصوات اللغوية د/ إبراهيم أنيس ص ٢٦-٢٧ طبع مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٤م.

انيس قد استخدم مصطلح السواكن وأصوات اللين ساداً بهما ما يقابل الصوامت والصوائت .

وكذلك عن طريق السمع يمكن تحديد نوع المتحدث ذكراً كان أو أنثى ، وعمره كبيراً أو صغيراً ، ولهجته أى توضيح موطن إقامته ، وكذلك تحديد مزاجه وعاطفته عن طريق النبر ونطق الصوت " إن عبارة واحدة قد ينطقها المتكلم هى بذاتها بطرق متباينة وفق حالته المزاجية ، فالنغمة التى ينطق بها كلمة واحدة مثل " أهلاً بك " قد تتعدد وتكشف عن حالات عاطفية متباينة ما بين الترحيب ، والنشوة إلى الاستسلام ، والاكتئاب ، بل إن خصائص نغمة الحديث ، وأسلوب الكلام ، أو طريق النطق قد تذكرنا بشخص نسيناه ، وأخيراً فإننا نستطيع أن نتبين الكثير من صفات المتحدث عن طريق لهجته ، هل هو طفل أم يافع ، أم كهل ؟ و هل هو ذكر أم أنثى ؟ بل وأن نعرف مسقط رأسه ".(١٤٢)

ودراسة الفوارق بين الأشخاص حسب المولد ، و حسب الجنس وحسب العمر ، وحسب الحالة النفسية التى تعتريه ، عدها المحدثون من دراسة الأسلوب الصوتى وعن ذلك يقول (كندرا توف) " وطبيعى أن كل لغة تتضمن فوارق فى النطق تبعاً لموطن المتكلم ، ونود هنا أن نؤكد حقيقة معينة ، وهى أن نسق اللغة ذاته "الفونيمات" هو أيضاً أحد العوامل ، بالإضافة إلى نغمة الصوت ، وطبقته ، وجرسه التى تساعدنا على إدراك نشأة المتحدث ، ومستوى تعلمه ، وموطنه ، ونوعه ذكر أم أنثى ، إلا أن هذا لا يدخل فى نطاق

---

(١٤٢) الأصوات و الإشارات تأليف أ-كندراتوف ص ١٧٩ترجمة / شوقى جلال ، طبع الهيئة المصرية العامة بالقاهرة سنة ١٩٧٢..

مبحث"الفونولوجيا" بل يدخل ضمن مبحث آخر لعلم اللغة ، ونعنى به مبحث الأسلوب الصوتى ".(١٤٣)

" إن لكل إنسان صفة صوتية خاصة تميز صوته من صوت غيره من الناس . فليس صوت الإنسان فى أثناء حديثه ذا شدة واحدة ، أو درجة واحدة ، بل هو متعدد الشدة والدرجة ، وهو مع هذا أيضاً ذو صفة خاصة تميزه من غيره من أصوات الناس ، فالإنسان حين يتكلم تتغير درجات صوته عند كل مقطع تقريباً ".(١٤٤)

وقد خصَّص المحدثون فى الدراسات الصوتية قسماً خاصاً

لدراسة الأصوات كما تستقبلها الأذن يسمى علم الأصوات "الأكوستيكى" ، و عنه يقول (ماريو باى) " علم الأصوات الأكوستيكى يعالج أصوات الكلام كما تستقبلها أذن السامع ".(١٤٥)

و يحدد "ماريو باى" الملامح الصوتية التى تدخل تحت علم الأصوات "الأكوستيكى" بقوله " إن الملامح التى تدخل تحت الجانب الأكوستيكى ، لا الجانب الإنتاجي للأصوات هى : درجة الصوت ، وعلوه ، وكيفية تنغيمه ، أما الأول فيعتمد على نسبة تردد الموجات الصوتية وأما الثانى : فعلى سعتها ، وأما

---

(١٤٣) السابق ص ١٨٥.

(١٤٤)الأصوات اللغوية د/ إبراهيم أنيس ص ٨.

(١٤٥) أسس علم اللغة تأليف " ماريوباى " ص ٤٨ ترجمة وتعليق د / أحمد مختار عمر طبع عالم الكتب بالقاهرة سنة ١٩٨٣م.

وقد نبه "ماريو باي" إلى أن هذه الأمور التي تصاحب [illegible]

ومنها النبر ، والتنغيم والفصل ، ليست إضافية ، أو ثانوية أي أنها لا تؤثر في المعنى ، ولذلك قال " قد تكون في بعض الأحيان مهمة للمعنى تماماً كأهمية الوحدات الصوتية " ، و يؤكد ذلك الدكتور السعران حيث يقول " يقوم التنغيم في لغات كثيرة بدور "مورفولوجي" تصريفي " هام : إنه يقوم بنفس الدور الذي يقوم به القسمان السابقان من "المورفيمات" فنجد في بعض اللغات صيغتين متماثلتين من الناحية الصوتية ، ولكن كلاً منهما تنطق بنغمة مخالفة ، فيكون لكل منها معناها. وهذا واضح ، وكثير في لغات الشرق الأقصى كالصينية ، وفي بعض اللغات الأفريقية...... والارتكاز كذلك قد يكون

(١٤٦) السابق ص ٩٢-٩٣

كلام القائل لذلك : من التطويح ، والتطريح ، والتفخيم ، والتعظيم ، ما يقوم مقام قوله : طويل أو نحو ذلك [١٤٩]

وفى كلام ابن جنى " من التطويح ، والتطريح ، والتفخيم ، والتعظيم " يُفهم أن هذه الأنواع من طرق الأداء - والتى لا تدرك إلا بالسمع - مما دخل فى تنوع المعنى وتغيره . و هو ما يدخل تحت "التنغيم" ولا يمكن ملاحظته إلا بالأداء .

وعن طريق الأذن يمكن تحديد شدة الصوت ، ودرجته ، ونوعه" إن السمع هو الطريق الذى يستقبل الصوت ، ولكن الأذن حين تستقبل الصوت تختلف الصورة التى تميز بها بين صوت وآخر . فأحياناً نسمعه قوياً ، وأخرى متوالياً، وثالثة أجش ، وهكذا ، ولكل لون من تلك الألوان الصوتية سمة تميزه عن الآخر ، و تجعل له حقيقة واضحة ، وعوامل تؤثر فيه ، ولا تتضح تلك السمات ، ولا تبرز إلا بأمثلة واقعية ليتحدد المراد من كل لون ، فإذا وضع الإنسان ساعته فى وضع قريب من أذنه ، برز صوتها لدى السمع بصورة واضحة، وأن ذلك الوضوح يقل كلما بعدت الساعة عن الأذن إلى أن يختفى الصوت تماماً..... فشدة الصوت :هى الأثر السمعى الناجم عن قوة الصوت من مصدره ... ودرجة الصوت : هى الخاصية التى تميز بها الأذن بين الأصوات الحادة والغليظة ، أو بين الأصوات المرتفعة الدرجة ، والمنخفضة الدرجة، وقد أثبت العلماء أن الدرجة تتوقف على عدد الذبذبات"الهزات" الصادرة من الجسم المحدث للصوت .....

---

(١٤٩) الخصائص لابن جنى ٢/٣٧٠-٣٧١ تحقيق محمد على النجار طبع عالم الكتب لبنان.

ونوع الصوت : هو الخاصية التى تميز بها الأذن بين الأصوات الصادرة من مصادر مختلفة كقطار ، ومعزف ، وإنسان ".[١٥٠]

ومن الصفات التى تعتمد على السمع فى وضوحها ، وطريقة أدائها ، التفخيم والترقيق ، إذ يوضحها السمع " ويطلق مصطلح التفخيم ، أو التغليظ على الأثر السمعى له ، وأصوات الاستعلاء كلها مفخمة "[١٥١] ، " والترقيق هو الأثر السمعى له ، وأصواته ما عدا أصوات الاستعلاء ، أما اللام و الراء فلهما حالتان تفخيم ، وترقيق ".[١٥٢]

ومن ذلك أيضاً ما يعرف بالصفات غير المتقابلة أو الخاصة ببعض الحروف مثل أصوات الصفير ، والصفير معناه " صوت زائد يخرج من بين الشفتين شبيهاً بصفير الطائر ، وحروفه السين ، والزاى ،والصاد "[١٥٣] وهذا التصويت الذى يصاحب أصوات الصفير يجعلها أوضح من غيرها من الأصوات الاحتكاكية ، ولهذا يقول عنها سيبويه إنما سميت كذلك لأنها "أندى فى السمع"[١٥٤] ويوضح محقق الكتاب أن معنى "أندى" أى أرفع و أعلى .[١٥٥]

---

(١٥٠) انظر التجويد و الأصوات د/نجا ص ١٩-٢٣، أصوات اللغة العربية د/عبد الغفار حامد هلال ص ٣٦-٤٠ مطبعة الجبلاوى عام ١٩٨٨ الطبعة الثانية .

(١٥١) أحكام تجويد القرآن الكريم د/عبد الله عبد الحميد سويد ص ١٦١.

(١٥٢) السابق ص ١٦٤.

(١٥٣) التجويد و الأصوات د/نجا ص ٧٦.

(١٥٤) الكتاب لسيبويه ٤/٤٦٤ تحقيق محمد عبد السلام هارون .طبع عالم الكتب -بيروت.

(١٥٥) الكتاب ٤/٤٦٤ هامش رقم ٨.

وعن ذلك أورد ابن منظور " فلان أندى صوتاً من فلان ، أى أبعد مذهباً، وأرفع صوتاً ".(١٥٦)

وكذلك صفة "القلقلة" التى اتصفت بها بعض الحروف ، وهى خمس مجموعة فى قولهم "قطب جد" ، و قد أورد ابن منظور أن " القلقلة :شدة الصياح "(١٥٧) وهذا ما عبر به سيبويه من أن القلقة سميت بذلك لما يصاحبها من صوت عند الوقف حيث يقول " وإنما سميت بذلك للصوت الذى يحدث عنها عند الوقف ؛ لأنك لا تستطيع أن تقف عنده إلاّ معه لشدة ضغط الحرف".(١٥٨)

وهذا ما أورده ابن جنى من أنه عند الوقف على حروف القلقلة لابد من صوت مسموع يدل على القلقلة من شدة الضغط ، وأن العرب فى ذلك ليسوا على درجة واحدة حيث يقول " إن فى الحروف حروفاً مشربة تُحفَز فى الوقف ، و تضغط عن مواضعها ، وهى حروف القلقلة وهى : القاف ، والجيم ، والطاء ، والدال ، والباء ؛ لأنك لا تستطيع الوقوف عليها إلاّ بصوت ، وذلك لشدة الحَفْز ، والضغط ، وذلك نحو : الحقْ، واذهبْ، واخلطْ ، واخرج ، وبعض العرب أشد تصويتاً".(١٥٩)

---

(١٥٦) لسان العرب لابن منظور ١٨٧/٢٠ [ندى] طبعة مصورة عن طبعة بولاق.

(١٥٧) اللسان ٨٥/١٤ [قلل].

(١٥٨) اللسان ٨٦/١٤[قلل] و أنظر الكتاب لسيبويه ٤/ ١٧٤.

(١٥٩) سر صناعة الإعراب لابن جنى ٦٣/١ تحقيق د/حسن هنداوى طبع دار القلم دمشق عام ١٩٩٣.

وعلى هذا الوصف فالقلقلة لا تظهر ، ولا يمكن التعرف على تأديتها إلا عن طريق السمع ؛ لأنها فى الرسم الإملائى مثل غيرها من الحروف . وهذا الصوت الذى يتبع أصوات القلقلة عند الوقف يسميه المحدثون "الحركة المركزية" وفيها يكون وسط اللسان مرتفعاً نسبياً والسبب فى ذلك المحافظة على صفتى الشدة والجهر فى هذه الأصوات من الضياع " إن كل صوت مجهور شديد يكون عرضة إلى أن يصبح مهموساً ؛ لذلك حرص المتقدمون من علماء العربية على إظهار صفة الجهر فى أصوات القلقلة ؛ فصوت الباء مثلاً إذا وقف عليه ، وهو خالٍ من علامة الإعراب ، أى غير متبوع بحركة يصبح مهموساً . ولكن إذا أُتبع بالحركة المركزية ، فإنه يحتفظ بصفة الجهر ، فلا تزول عنه ".(١٦٠)

ومن ذلك أيضاً ما يحدث للنون الساكنة والتنوين من حالات الإظهار ، والإخفاء ، والإدغام ، والقلب ، فى تأثرها بما يجاورها من أصوات أخرى ، وهذه الصفات لا يمكن أن تظهر ، أو تُعرف إلاّ عن طريق السماع ". ذلك أن الانسجام الصوتى أمر يلحظ عند الأداء للفظ ، أو لجملة الكلام ؛ لأن الناطق حين ينطق كلامه نطقاً طبيعياً بعيداً عن التكلف ، يبدو لنا أن الأصوات المتجاورة تتأثر ببعضها ، إلاّ أن هذا التأثير متفاوت الصورة ، و هذا أمر واضح الصورة فى اللغة العربية قديمها وحديثها ؛ فإن الناطق للنون الساكنة المتلوة بياء

---

(١٦٠) الدراسات الصوتية عند علماء العربية تأليف عبدالحميد الهادى إبراهيم الأصبعى ص ٨٠-٨١ منشورات كلية الدعوة الإسلامية-طرابلس-ليبيا سنة ١٤٠١هـ.

كقوله تعالى " فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام "[١٦١] يبدو له أن النون تدغم فى الياء ، فيطول وقت نطقها".[١٦٢]

وخُصّ صوت النون بـهذه التأثيرات ؛ لأنه من أكثر الأصوات شيوعاً فى العربية و كذلك من أشدها تأثراً وعن ذلك يقول الدكتور أنيس " ويعرض للنون من الظواهر اللغوية ما لا يشركها فيه غيرها ؛ لسرعة تأثرها بما يجاورها من أصوات ؛ ولأنها بعد اللام أكثر الأصوات الساكنة شيوعاً فى اللغة العربية ، والنون أشد ما تكون تأثراً بما يجاورها من أصوات حين تكون مشكلة بالسكون "[١٦٣] . ولذلك فأن الأقدمين للمحافظة على هذا الصوت من الفناء فى ما يجاوره من أصوات لجأوا إلى الغنة فى النون الساكنة " والوسيلة التى لجأ إليها القراء منذ القدم لإعطاء النون بعض حقها الصوتى مع غير أصوات الحلق هى الغنة ، فالغنة التى حالت بين النون و فنائها فى غيرها ... وليست الغنة إلا إطالة لصوت النون مع تردد موسيقى محبب فيها "[١٦٤] والغنة فى حالات النون الساكنة ليست على درجة واحدة " طول الغنة فى المشدّد أكمل منها فى المدغم ، وفى المدغم أكمل منها فى المخفى ، وفى المخفى أكمل منها فى الساكن المظهر ، وفى الساكن المظهر أكمل منها فى المتحرك ".[١٦٥]

---

(١٦١) سورة الأنعام/١٢٥.

(١٦٢) التجويد و الأصوات د/نجا ص ٩٦.

(١٦٣) الأصوات اللغوية د/إبراهيم أنيس ص ٦٧.

(١٦٤) السابق ص ٧٠.

(١٦٥) أحكام تجويد القرآن الكريم ص ١٤٢ .

ومن ذلك أيضاً المد والقصر فى أصوات اللين ، فالمد الطبيعى وهو الذى لا يتحقق صوت المد دونه ، والمد الفرعى و هو الزيادة على المد الطبيعى لسبب لفظى أو معنوى ، ولا شك أن الفرق بين الطبيعى والفرعى الزمن الذى يستغرقه النطق فيهما ، وهذا أمر لا تحكمه إلاّ المشافهة ، وتتقنه الدُربة والمران ، مع أن العلماء قدروا ذلك بألفات ، أو نصف ألفات ، أو استخدام الأصابع فى تقدير ذلك وعن هذا يقول ابن الجزرى " وهذه الزيادة بعينها إن قدّرت بألف ، أو بنصف ألف هى واحدة ، فالمقدار غير محقق ، والمحقق إنما هو الزيادة ، وهذا مما تحكمه المشافهة ، وتوضحه الحكاية ، ويبينه الاختبار ، ويكشفه الحس "[١٦٦] وقد أشار ابن جنى إلى اختلاف الزمن النطقى بين حروف المد فى المد الطبيعى ، والمد الفرعى ، وكأنه يشير إلى أن هذا الأمر لا تخطئة أذن سوية حيث يقول " ألا ترى أن الألف ، والياء ، والواو اللواتى هن حروف توامّ كوامل ، قد تجدهن فى بعض الأحوال أطول وأتم منهن فى بعض ، وذلك قولك : يخاف ، وينام ، ويسير ، ويطير ، ويقوم ، ويسوم فتجد فيهن امتداداً ، واستطالة ما ، فإذا أوقعت بعدهن الهمزة ، أو الحرف المدغم ازددن طولاً ، وامتداداً ، وذلك نحو يشاء ، ويداء ،ويسوء ، ويهوء ، ويجئ ، ويفئ ، وتقول مع الإدغام : شابّة ، ودابّة ...أفلا ترى إلى زيادة الامتداد فيهن بوقوع الهمزة والمدغم بعدهن "[١٦٧].

---

(١٦٦) النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى ١/٢٥٥-٢٥٦ نشر دار الكتب العلمية بيروت لبنان سنة١٩٩٨.

(١٦٧) سر صناعة الإعراب ١/١٧-١٨.

ومن ذلك أيضاً صفة الإطباق التى تتصف بها بعض الأصوات ، وهى الصاد ، والضاد ، والطاء ، والظاء ، هى أثر سمعى يميز هذه الأصوات عن غيرها من نظائرها " فالإطباق عملية عضوية يترتب عليها أثر سمعى متميز ، ويكون ذلك بارتفاع مؤخرة اللسان ، وتراجعه إلى الخلف فى اتجاه ما يليه من الحلق والحنك الأعلى " الجزء اللين منه " فى الوقت الذى يرتفع فيه مؤخر اللسان إلى أعلى بدرجات متفاوتة حسب كل مخرج من مخارج أصوات الإطباق ، بحيث يكون وسط اللسان مقعراً ، فتتكون بذلك حجيرة رنين لها شكل خاص ينتج عنها أثر سمعى معين ، يميز هذه الأصوات عن غيرها ".(١٦٨)

و لقد أشار سيبويه ووافقه ابن جنى إلى هذا التميز السمعى لهذه الأصوات ،ولو أنه زَال عنها لحدث لبس وتشابه بينها وبين بعض الأصوات حيث يقول " ولولا الإطباق ؛ لصارت الطاء دالاً ، والصاد سيناً ، والظاء ذالاً وخرجت الضاد من الكلام ؛ لأنه ليس من موضعها شئ غيرها تزول الضاد إذا عدمت الإطباق إليه ".(١٦٩)

ومن ذلك أيضاً " الرَوْمُ " " قال الجوهرى : رَوْمُ الحركة الذى ذكره سيبويه ، حركة مختلسة مختفاة لضرب من التخفيف ، وهى أكثر من الإشمام ؛ لأنها تسمع ؛ وهى بزنة الحركة ، وإن كانت مختلسة مثل همزة بين بين "(١٧٠) . والرَوْمُ يقع فى حركتى الضم والكسر فى حالة الوقوف عليهما ، وعلى هذا فهو " إضعاف الصوت بالحركة"الضمة أو الكسرة" حتى يذهب معظم صوتها

---

(١٦٨) الدراسات الصوتية عند علماء العربية ص ٩٢-٩٣بتصرف .

(١٦٩) الكتاب لسيبويه٤/٤٣٧ ، وأنظر سر صناعة الإعراب ٦١/١.

(١٧٠)لسان العرب ١٥/١٤٩-١٥٠[روم].

، فيسمع لها صوت خفىّ يسمعه القريب المصغى دون البعيد ؛ لأنها غير تامة ، أو الإتيان بثلثى الحركة "الضمة أو الكسرة" ولا يُوخذ الروم إلاّ بالمشافهة من القراء البارعين".(١٧١)

" فالرمز المستغرق فى نطق كسرة الميم من "الرحيم" فى "بسم الله الرحمن الرحيم" فى حالة الوقف بالروم أقصر من الكسرةالعادية "(١٧٢)

ومن ذلك أيضا الإمالة ، فإنها تعتمد على السمع ؛ لأن رسم الحروف الكتابية لا يوضح الصوت الممال ، والإمالة هى عدول عن الوضع الطبيعى للصوت إلى وضع آخر ، فهى " مصدر أملت الشئ إمالة إذا عدلت به إلى غير الجهة التى هو فيها ".(١٧٣)

وفى الاصطلاح " أن تذهب بالفتحة إلى جهة الكسرة ، فتشوب الفتحة شيئاً من صوت الكسرة ، فتصير الفتحة بينها وبين الكسرة ، فإن كان بعدها أى الفتحة ألف ذهبت بالألف إلى جهة الياء ، فتصير الألف بينها و بين الياء "كالفتى" بإمالة الفتحة الألف ، وإلاّ يكن بعد الفتحة ألف ، فالممال الفتحة وحدها ، سواء كانت الفتحة قبل تاء التأنيث أم لا ".(١٧٤) " فلا فرق إذن بين

---

(١٧١)فى علم الأصوات اللغوية و عيوب النطق د/ البدراوى زهران ص ٣٠٤طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٩٤م.

(١٧٢) أحكام تجويد القرآن الكريم فى ضوء علم الأصوات الحديث ص ٨٨ .

(١٧٣) شرح التصريح على التوضيح للشيخ خالد الأزهرى ٢/٣٤٦ دار إحياء الكتب العربية الحلبى.

(١٧٤) السابق ٢/٣٤٦.

أن تمال الفتحة أو تمال الألف ؛ لأن العملية العضوية فى الحالتين واحدة ".[١٧٥]
ولذلك فإن موضع اللسان هو الذى يحدد موقع الفتحة أو الألف ، و كذلك الإمالة بأنواعها : من الشدة والخفة والتوسط.

"واللسان مع الفتحِ يكاد يكون مستوياً فى قاع الفم ، فإذا أخذ فى الصعود نحو الحنك الأعلى بدأ حينئذ ذلك الوضع الذى يسمى بالإمالة . وأقصى ما يصل إليه أول اللسان فى صعوده نحو الحنك الأعلى هو ذلك المقياس الذى يسمى عادة بالكسرة ، طويلة كانت أو قصيرة . فهناك إذن مراحل بين الفتح و الكسر لا مرحلة واحدة .من أجل ذلك كان القدماء يقسمون الإمالة إلى نوعين : إمالة خفيفة ، و إمالة شديدة "[١٧٦] ، و لتعدد أنواع الإمالة حسب وضع اللسان قرباً أو بعداً من موضع الكسرة طويلة أو قصيرة . أوضح سيبويه فى كتابه أن العرب ليسوا على درجة واحدة فى الإمالة حيث يقول " إنه ليس كل من أمال الألفات وافق غيره من العرب ممن يميل ، ولكنه قد يخالف كل واحد من الفريقين صاحبه "[١٧٧] وهذه المخالفة تؤكد أن العلماء لم يجدوا لذلك ضابطاً أو قاعدة يمكن أن تطّرد ، ويسير عليها الباقون

---

(١٧٥) فى اللهجات العربية د/إبراهيم أنيس ص ٦٤ طبع الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٤.

(١٧٦)فى اللهجات العربية د/إبراهيم أنيس ص ٦٤-٦٥ هكذا قال الدكتور أنيس ، والواقع أن التقسيم ينبغى أن يشمل أنواع الإمالة الثلاثة : الخفيفة وفيها يكون ارتفاع اللسان إلى ثلث المسافة التى يصل إليها وهو فى أقصى حالات ارتفاعه ، والإمالة المتوسطة وهى التى تسمى إمالة بين بين وفيها يرتفع مقدم اللسان إلى منتصف المسافة ، أما الإمالة الشديدة وهى التى تسمى بالبطح أو الاضطجاع ففيها يكون الارتفاع إلى ثلثى المسافة .

(١٧٧) الكتاب لسيبويه ٤/١٢٥.

،ولكنه أمر تضبطه المشافهة والمران . ولذلك أوردوا أن الفائدة من الإمالة الانسجام بين الأصوات " وأما فائدتها فتناسب الأصوات وصيرورتها من نمط واحد ، وبيان ذلك أنك إذا قلت "عابد" كان لفظك بالفتحة والألف تصعداً واستعلاء ، فإذ عدت إلى الكسرة كان انحداراً وتسفلاً فيكون فى الصوت بعض اختلاف ، فإذا أملت الألف قرب من الياء ، وامتزج بالفتحة طرف من الكسرة ، فتقارب الكسرة الواقعة بعد الألف ،وتصير الأصوات من نمط واحد ، وقد ترد الإمالة للتنبيه على أصل أو غيره ".[١٧٨]

وابن جنى لم يقف فى تأثر الحركات بعضها ببعض عند تأثر الفتحة بالكسرة أو ألف المد بياء المد ، فيحدث ما يسمى بالإمالة ، بل إنه رأى أن الحروف الصوامت بتأثر بعضها ببعض فينتج عن ذلك ما يسمى بالحروف الفرعية المستحسنة كالصاد التى تضارع الزاى ، فكما أن الحركات يتأثر بعضها ببعض فإن الصوامت كذلك وفى ذلك يقول و فى ذلك يقول "واعلم أنك كما قد تجد هذه المضارعة ، وهذا التقارب بين الحروف ، فقد تجده -أيضا- بين الحركات حتى أنك تجد الفتحة مشوبة بشئ من الكسرة ، أو الضمة منحواً بها إليهما ، وتجد الكسرة أيضا مشوبة بشئ من الضمة ، والضمة مشوبة بطرف من الكسرة "[١٧٩] ..... ويضرب لذلك الأمثلة حيث يقول " أما الفتحة المشوبة بالكسرة فالفتحة التى قبلها الإمالة نحو فتحة عين عَابد ، وعَارف وذلك أن الإمالة إنما هى أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة ، فتميل الألف التى بعدها نحو الياء لضرب من تجانس الصوت ..... و أما الفتحة الممالة نحو الضمة ، فالتى تكون

---

(١٧٨) شرح التصريح على التوضيح ٢/٣٤٦.

(١٧٩) سر صناعة الإعراب ١/٥١-٥٢.

قبل ألف التفخيم وذلك نحو الصلاة و الزكاة ..... وأما الكسرة المشوبة بالضمة فنحو : قِيل ، وبِيع ،وغِيض ، وسُيق.....وأما الضمة المشوبة بالكسرة فنحو قولك فى الإمالة : مررت بمزعُور وهذا ابن بُور ، نحوت بضمة العين والباء نحو كسرة الراء ، فأشممتها شيئاً من الكسرة".(١٨٠)

ولكن ابن جنى يؤكد أن هذا النوع من الانسجام بين الحركات ، وطريقة أدائه لا يمكن أن يُتقن ، أو يؤدى صحيحاً ، أو يُعرف سره ، إلاّ بالمشافهة حيث يقول " فهذا و نحوه مما لا بد فى أدائه ، وتصحيحه للسمع من مشافهة توضحه ، وتكشف عن خاص سرّه "(١٨١)

ولاشك أن الانسجام بين أصوات اللين الطويلة أو القصيرة يؤدى إلى التخفيف وهو ما يعرف بالإتباع ؛ لأن " الانتقال من الكسر ، أو الفتح ، أو بالعكس ،يتطلب مجهوداً عضوياً أكبر مما لو انسجمت أصوت اللين بعضها مع بعض ،بأن تصبح متشابهة ".(١٨٢) ولذلك نجد أكثر الذين يرغبون فى إمالة الفتحة نحو الكسرة هم من وسط الجزيرة وشرقها ، وهم ما يُعرفون بالبدو " وأما أصحابها -يعنى الإمالة- فتميم ،وقيس ، وأسد ،وعامة نجد ولا يميل الحجازيون إلاّ مواضع قليلة ".(١٨٣)

وكما أن الانسجام بين الحركات لا يمكن إتقانه إلا بالمشافهة عن طريق السمع ، فكذلك الحروف التى عرفت بالحروف المستحسنة ، وهى التى تكون بين

---

(١٨٠) سر صناعة الإعراب ٥٢-٥٣.

(١٨١)السابق ص ٥٣.

(١٨٢) فى اللهجات العربية د/إبراهيم أنيس ص ٦٧.

(١٨٣) شرح التصريح على التوضيح ٣٤٧/٢.

حرفين مثل الهمزة المخففة و التى تسمى همزة بين بين ، أو الجيم التى تقرب من الزاى ، أو الشين التى كالجيم ، أو الشين التى تقرب من الزاى ، أوالصاد التى كالزاى ،أو ألف الإمالة ، أو ألف التفخيم (١٨٤) أو المستقبحة مثل الباء التى كالفاء ، و الباء التى كالميم والجيم التى كالشين ، والجيم التى كالكاف ، والصاد التى كالسين ، والطاء التى كالتاء ، والظاء التى كالثاء ..... (١٨٥) وعن الحروف المستحسنة ، والمستقبحة يقول ابن جنى " إلا أن المشافهة تأتى عليها ، وتوضح لك حالها".(١٨٦)

وأورد سيبويه أن الحروف المستحسنة وكذلك المستقبحة ، والتى منبعها وأصلها الحروف التسعة والعشرون لا تدرك إلا بالسمع حيث يقول " وتكون خمسة وثلاثين حرفاً بحروف هن فروع -وأصلها من التسعة والعشرين- وهى كثيرة يؤخذ بها ، وتستحسن فى قراءة القرآن والأشعار وهى : النون الخفيفة ،والهمزة التى بين بين ، والألف التى تمال إمالة شديدة ، والشين التى كالجيم ، والصاد التى تكون كالزاى ، وألف التفخيم ، يعنى بلغة أهل الحجاز فى قولهم الصلاة ، والزكاة ، والحياة ، وتكون اثنين وأربعين حرفاً بحروف غير مستحسنة ، ولا كثيرة فى لغة من ترتضى عربيته ، ولاتستحسن في قراءة القرآن ولا فى الشعر وهى : الكاف التى بين الجيم والكاف ، والجيم التى كالكاف ، والجيم التى كالشين ، والضاد الضعيفة ، والصاد التى كالسين ، والطاء التى كالتاء ،

---

(١٨٤) انظر أصوات اللغة العربية د/عبد الغفار حامد هلال ص ٨٩-٩١ وقارن بسر صناعة الإعراب لابن جنى ٤٨/١-٥١.

(١٨٥) أصوات اللغة العربية د/عبد الغفار حامد هلال ص٩١-٩٤.

(١٨٦) سّر صناعة الإعراب ٥١/١.

وهذه الحروف التى تمتحنها السين و والطاء التى كالتاء ، والباء التى كالفاء ، أربعين - جيدها ورديئها - أصلها التسعة والعشرون ، لا تتبين إلاّ بالمشافهة "(١٨٧)

السمع وعلم التجويد

وأما عن التجويد فهو علم لا يكتسب ، ولا يُتقن إلاّ بالمشافهة والمران ، ومحاكاة مجيدى القراءات القرآنية الصحيحة " والتجويد و إن كان صناعة علمية لها قواعدها التى تعتمد على إخراج الحروف من مخارجها مع مراعاة صلة كل حرف بما قبله ، وما بعده ، فى كيفية الأداء فإنه لا يكتسب بالدراسة بقدر ما يكتسب بالممارسة ، والمران ، ومحاكاة من يجيد القراءة "(١٨٨) ولذلك يقول ابن الجزرى " ولا أعلم سبباً لبلوغ نهاية الإتقان والتجويد ، ووصول غاية التصحيح والتشديد ، مثل رياضة الألسن ، والتكرار على اللفظ المتلقى من فم المحسن "(١٨٩) ويؤكد على أن المشافهة هى السبيل الوحيد لإتقان هذا العلم ، بعد أن أوضح كيفية نطق بعض الحروف من حيث التفخيم والترقيق ، والإدغام والفك والإطباق والانفتاح ، والقلقلة ، والإخفاء ، والإقلاب ، والإظهار يقول " والمشافهة تكشف حقيقة ذلك ، والرياضة توصل إليه "(١٩٠)

ويرى أن الإتقان لا يتوقف على نطق الحروف مفردة ، بل الإتقان فى نطقها مركبة ؛ لأن بعض الحروف يجتذب بعض ، ويؤثر عليه أو يتأثر به ، وقد يحسن

---

(١٨٧) انظر كلام العرب د/حسن ظاظا ص ١٥-١٦. وقارن بالكتاب لسيبوية ٤٣٢/٤.

(١٨٨) مباحث فى علوم القرآن تأليف مناع القطان ص ١٨٨ مؤسسة الرسالة -لبنان ١٩٩٥.

(١٨٩) النشر فى القراءات العشر ١٦٩/١.

(١٩٠) النشر فى القراءات العشر ١٧٧/١.

الإنسان الحروف مفردة ، ولا يحسنها مركبة ، وهذا أيضاً لا يتيسر إلا برياضة الألسن على النطق المسموع ، وعن ذلك يقول " فإذا أحكم القارئ النطق بكل حرف على حدته موفٍ حقه ، فليعمل نفسه بإحكامه حالة التركيب ؛ لأنه ينشأ عن التركيب ما لم يكن حالة الإفراد ، وذلك ظاهر ، فكم ممن يحسن الحروف مفردة ، ولا يحسنها مركبة بحسب ما يجاورها من مجانس ، ومقارب ، وقوى ، وضعيف ، ومفخم ، ومرقق ، فيجذب القوى الضعيف ، ويقلب المفخم المرقق ، فيصعب على اللسان النطق بذلك على حقه إلاّ بالرياضة الشديدة حالة التركيب ، فمن أحكم صحة اللفظ حالة التركيب حصّل حقيقة التجويد بالإتقان والتدريب "(١٩١)

ويرى ابن الجزرى أن الخلل الواقع فى القراءات هو من عدم الأخذ عن قارئ مُتقن ، أو علم يضبط ذلك مع رياضة الألسن حيث يقول " إن أصل الخلل الوارد على ألسنة القراء فى هذه البلاد ، وما التحق بها هو إطلاق التفخيمات ، والتغليظات على طريق ألفتها الطباعات ، تلقيت من العجم واعتادتها النبط ، واكتسبها بعض العرب ، حيث لم يقفوا على الصواب ممن يرجع إلى علمه ، ويوثق بفضله وفهمه".(١٩٢)

وهذا يعنى أنه عند عدم التلقى من مُتقنٍ للقراءات القرآنية ، فإن القراءة لم تُتقن تماماً ، ويصاحبها الشذوذ ، ويلحق بها من التفخيم والتغليظ واللحن والتحريف الناتج عن طباع غير عربية سببها الاختلاط بالأعاجم ، ولا سبيل إلى إتقان القراءة القرآنية إلاّ من خلال التلقين ، وهو ما يعرف الآن بعلم التجويد.

---

(١٩١) النشر فى القراءات العشر ١٧٠/١.

(١٩٢) النشر فى القراءات العشر ١٧٠/١.

ولم يقف الاعتماد على السمع عند الكلام الإنسانى ، بل -أيضا- فى الأنظمة الاصطلاحية والتى تعمل على إيصال معنى معين عن طريق الصوت غير الإنسانى " والأشكال السمعية لهذه الأنظمة الاصطلاحية غير الكلام الإنسانى يقوم أهلها على الاستعانة بآلات وأدوات معينة -غير جهاز النطق الإنسانى- لإصدار صيحات - أصوات - خاصة جرى الاصطلاح على أنها رموز لمعان معينة ومن ذلك لغات الطبول . الذائعة عند زنوج إفريقيا ، ونقل الرسائل بطبول فى الشمال الغربى من الأمازون .

وليست هذه الأنظمة مقصورة على المجتمعات التى جرى العرف بتسميتها "بدائية" أو"فطرية" ، أو"غير متمدنة" ...إلخ ، ولكنها ذائعة الاستعمال كذلك فى المجتمعات "الراقية" "المتمدنة" ؛ فأرقى المجتمعات المعاصرة تستعمل رنات الأجراس ، ودقات النواقيس ، للدلالة على معان اصطلاحية ، ولتوصيل معان ، كما هو الحال فى الكنائس والمعابد ، والمدارس ، وأصوات الأبواق ، و لنوافير وما إليها تستعمل فى الجندية ، والمعسكرات للتحية ، ولإصدار "أوامر" خاصة كالاستدعاء ، والانصراف ،والإيذان بمواعيد الطعام ... الخ . ومن هذه الأشكال السمعية ما يعتمد فى إصدار أصواته على جهاز النطق الإنسانى نفسه ، كالأنظمة التى تستعمل "الصفير" استعمالاً اصطلاحياً "(١٩٣) وذلك كما فى مباريات الكرة .

---

(١٩٣) علم اللغة مقدمة للقارئ العربى د/محمود السعران ص٦٤-٦٥.

وإذا نظرنا إلى الجانب الصوتى الذى يمكن تلمسه من خلال الصوت المفرد ، و هو بدوره يحدد المعنى العام للفظ المركب من أصوات نجد أن علماءنا الأوائل قد أدركوا القيمة التعبيرية للصوت المفرد " إذ لم يفتهم من كل حرف أنه صوت ، وإنما فاتهم من صوت هذا الحرف أنه معبر عن غرض ، وأن الكلمة العربية مركبة من هذه المادة الصوتية التى يمكن حل أجزائها إلى مجموعة من الأحرف الدوالّ المعبرة ، فكل حرف منها يستقل ببيان معنى خاص ما دام يستقل بإحداث صوت معين . وكل حرف له ظلّ وإشعاع ، إذ كان لكل حرف صدى وإيقاع "(١٩٤)

أثر السمع فى تحديد الوظيفة الإيحائية للصوت

لاشك أن التحليل اللغوى فى الدراسات الحديثة ينظر إلى الدلالة المعبرة للأصوات بأنها المفتاح لدلالة الألفاظ " من المحال إذن دراسة بنية الكلمة دون التحقيق الصوتى للعناصر المكونة للكلمات ، كما أن دراسة نظم الكلام قاصرة ما لم يراع فيها دراسة الصور التنغيمية مثلا ، والدراسة الدلالية ، أى دراسة المعنى ، لا يمكن أن تثمر ما لم ترتكز على دراسة الصور الصوتية والتنغيمية "(١٩٥)

" فالصوت يرتبط بالمعنى ، وطريقة الأداء لها دخل فى التعبير عنه ، وهذا وإن كان خاصاً ببعض الألفاظ وطرق أدائها فإن له أهمية فى كشف جانب حيوى من جوانب دلالة الألفاظ "(١٩٦)

---

(١٩٤) دراسات فى فقه اللغة ص ١٤٢.

(١٩٥) علم اللغة د/محمود السعران ص١٢٤.

(١٩٦) علم اللغة بين القديم والحديث د/عبد الغفار هلال ص ١٩٩.

وهذه الدلالة المستوحاة من الأصوات ، تنبع من طبيعة الصوت نفسه ، أو من الأداء الذى يتم به نطق الصوت ، " فكلمة "تنضخ" كما يحدثنا كثير من اللغويين القدماء تعبر عن فوران السائل فى قوة وعنف ، وهى إذا قورنت بنظيرتها "تنضح" التى تدل على تسرب السائل فى تؤدة وبطء ، يتبين لنا أن صوت الخاء فى الأولى له دخل فى دلالتها ، فقد أكسبها فى رأى أولئك اللغويين تلك القوة وذلك العنف ، وعلى هذا فالسامع يتصور بعد سماعة كلمة "تنضخ" عينا يفور منها السائل فوراناً عنيفاً ، والفضل فى مثل هذا الفهم يرجع إلى إيثار صوت على آخر ، أو مجموعة من الأصوات على أخرى فى الكلام المنطوق به". (١٩٧)

والعلاقة بين الأصوات ودلالتها توجد فى اللغات جميعاً ، إلاّ أنها فى اللغة العربية أوسع وأكثر ، وذلك أن " العلاقة بين الأصوات والدلالات قائمة فى كل لغة من اللغات ، وهى فى العربية واضحة جداً فى طائفة من الكلمات ، وهذا ما يطلق عليه المعاصرون اسم نظرية " الأنوماتوبويا" "onomatopoeia" ". (١٩٨)

" ولقد تنبه علماء العربية القدامى لهذا النوع من الألفاظ والدلالات فذكروا فى معجماتهم كثيراً من تلك الكلمات وسموها "أسماء الأصوات" فللإنسان القهقهة ، والغمغمة ، والكركرة ، والنحنحة والتأوه ، والغطيط ، والشخير ،

---

(١٩٧) دلالة الألفاظ للدكتور إبراهيم أنيس ص٤٦ مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٦م " بتصرف ".

(١٩٨) فقه اللغة العربية للدكتور قاصد الزيدى ص ٥٥ طبع دار الكتب للطباعة والنشر جامعة الموصول بغداد سنة ١٩٨٧م.

وللحيوان الرُّغام ، والبُغام ، والعُواء ، والخُوار ، والجؤار ، والمواء ، والنعيب ، والنعيق ، والنقيق ، ولعناصر الطبيعة الصامتة : الحفيف ، والخرير ، والصرير ، والقصف ، والدويُّ ، ومما يُعدُّ من كلمات "الأنوماتوبويا" الفرح ، والمرح ، والكمد ، والسدم للحزين ، والرنين ، والهنين ، والحنين ، والأنين للمكروب من الناس ، ورفَّ ، وزفَّ ، وأسفَّ ، وصفّ ، لطيران الطيور . وزلزل وقلقل ، وبلبل ، وولول ، وحثحث ، للإثارة والاضطراب "(١٩٩)

وقد أورد ابن جنى فى كتابه الخصائص باباً خاصاً أسماه "باب فى إمساس الألفاظ أشباه المعانى " وأكد فيه أن الخليل وسيبويه نبها عليه ، وتلقته الجماعة بالقبول والصحة حيث يقول " اعلم أن هذا موضع شريف لطيف ، وقد نبَّه عليه الخليل ، وسيبويه ، وتلقته الجماعة بالقبول له ، والاعتراف بصحته ، قال الخليل : كأنهم توهموا فى صوت الجندب استطالة ومدّاً فقالوا صَرَّ ، وتوهموا فى صوت البازى تقطيعاً فقالوا صَرْصَرَ . وقال سيبويه فى المصادر التى جاءت على الفعلان ، إنها تأتى للاضطراب والحركة ، نحو : النقزان ، والغليان ، والغثيان فقابلوا بتوالى حركات المثال توالى حركات الأفعال . ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ما حَداه ، ومنهاج ما مثلاّه ، وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتى للتكرير ، نحو : الزعزَعة و القلقلة والصلصلة ، والقعقعة ، والصعصعة ، والجرجرة ، والقرقرة ، ووجدت أيضاً "الفَعَلى" فى المصادر والصفات إنما تأتى للسرعة ، نحو البَشَكى ، والجَمَزى ، والوَلَقى "(٢٠٠)

---

(١٩٩) السابق ص٥٢-٥٣.

(٢٠٠) الخصائص ٢/١٥٢-١٥٣.

ويوضح فى موضع آخر أن العرب يسمون الأشياء بأصواتـــها " جاء عنهم من تسميتهم الأشياء بأصواتـــها : كالخازباز لصوته ، والبطّ لصوته ، والخاقبـــاق لصوت الفرج عند الجماع ، والواق للصرد لصوته ، وغاق للغـــراب لـــصوته ..... ونحو منه قولهم : حاحيت ، وعاعيت ، وهاهيت ، إذا قلـــت حـــاء ، وعاء ،وهاء ، وقولهم : بسملت ، وهيللت ، وحوقلت ، كل ذلك وأشباهه إنما يرجع فى اشتقاقه إلى الأصوات . والأمر أوسع".(٢٠١)

بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك وألطف حين أورد أن العرب يرتبون الأصوات فى الكلمة بما يشابـــهها صوتا ، وبترتيبها حدثاً حيث يقول " وذلك أنـــهم قد يضيفون إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتـــها بالأصوات المعبَّر عنـــها بـــها ترتيبها وتقديم ما يضاهى أول الحدث ، وتأخير ما يضاهى آخره ، وتوسيط مـــا يضاهى أوسطه ، سوقاً للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب .

وذلك قولهم : بحث ، فالباء لغلظها تشبه بصوتـــها خفقة الكف علـــى الأرض والحاء لصلحها تشبه مخالب الأسد ، وبراثن الذئب ونحوها إذا غارت فى الأرض و الثاء للنفث والبث للتراب ، وهذا أمر تراه محسوساً "(٢٠٢)

وقد استفاد الشعراء من إيحاء الأصوات و إمكاناتـــها فعملوا على استغلالـــها " يعمد الشعراء إلى استغلال إمكانيات الأصوات وقدرتـــها على الإيحاء بالمعنى ومحاكاته ، فالملاحظ أن المعنى دائماً يعظم شأنه ويرقى إذا ما صاحبته المـــؤثرات الصوتية التوقيعية الخالصة فشطر امرئ القيس :

---

(٢٠١) الخصائص ١٦٥/٢.

(٢٠٢) الخصائص ١٦٢/٢-١٦٣.

مكر مفر مقبل مدبر معاً...

بما ينتظم من كلمات قصار ، ذات مقـــاطع ، وحركـــات قـــصيرة ، وأصوات الراء المشددة المكررة ، هذا الشطر بـــهذه الخصائص الصوتية جدير أن يخلق جواً موسيقياً خاصاً ، وصورة معينة قادرة على الإيحاء بتلك الـــصورة التى تخيّلها الشاعر ، وعبّر عنها ، وهى وصـــف الحـــصان بـــسرعة الجـــرى ، والركض ففى كل الصورتين نشاط وحركة وكرٌّ وفرٌّ . وفى أماكن كثيرة قـــد تستغل الأصوات الموحية بمعانيها ، أو المحاكية للأحداث المعبر عنـــها اســـتغلالاً يقصد به إلى إحداث التأثير الدرامى "(٢٠٣)

والترتيـــب الصوتى فى الكـــلمة هـــو الذى يكسبها إيقاعاً معينـــاً" ويتحدد البعد الإيقاعى من خلال التكوين الصوتى للكلمة ، ويتأكد عبر تـــوالى حروف معينة ذات مخارج صوتية متناسقة ، أو متنافرة ، أو لـــهـــا وقع خاص ، والإيقاع ليس مجرد تجاوب نغمى يحصل من تآلف الكلمات أو تـــضافرها فى نسق صوتى خاص ، بل قد يكون خفياً هامساً ، أو بارزاً جهيراً ، أو مـــستراً ملحوظاً ينجم عن توالى وحدات صوتية خاصة على نحو تعاقبى أو تكـــرارى ، ونستطيع أن نلمس الإيقاع حين نستعرض بعض الأمثلة والنماذج.

ففى سينية البحترى الشهيرة يقول الشاعر فى مطلعها :

صُنْتُ نَفْسِى عَمَّا يُدَنِّسُ نَفْسِى ... وتَرَفَّعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جِبْسِ

---

(٢٠٣) دور الكلمة فى اللغة لأستيفان أولمان ترجمة د/ كمال بشر ص ٩٥ طبع دار غريب بالقاهرة سنة ١٩٩٧م.

فتوالى السينات وتكرارها على نحو واضح فى منظومة صوتية متصلة أدّى إلى تكوين إيقاع ملموس يتساوق مع الحالة النفسية التى يعيشها الشاعر ، إذ ينفس عن نفسه إثر أزمة ألمّت به أن قُتل ممدوحه الخليفة المتوكل "(٢٠٤) وهذا ينطبق أيضاً على سينية الخنساء فى رثاء أخيها صخر وذلك حيث تقول :

يذكرنى طلوع الشمس صخراً وأذكره لكل غروب شمسِ

كما يذكرنا أيضاً بسينية شوقى عندما نُفى إلى بلاد الأندلس وفيها يقول مثلاً :

أحرامٌ على بلابله الدو ح حلال للطير من كل جنس

وعلى هذا فإن خلق الصورة فى الخيال أو العقل لا يتوقف على الألوان البلاغية من تشبيه ومجاز وكناية وغيرها من الألوان البلاغية بل يشمل اللون والحركة والزمن الكلامى والصوت يقول بعض الباحثين " ليس التصوير ، أو خلق صورة فى الخيال والعقل وليد التصوير البيانى وحده المعهود فى التشبيه ، والمجاز ، والكناية ، بل إن التصوير أرحب مدى ، فقد يكون التصوير باللون ، أو الحركة ، أو الإيقاع ، أو الحوار ، ونبض الكلمات ونغم العبارات ، أو التقابل ، إنها الألفاظ الحقيقية فى أوضاع خاصة ، وأول ما يلقانا هنا ما يرسمه اللفظ المجرد ، أو يستقل برسم صورة معبرة مثيرة ، تارة بجرسه ، وإيقاعه ، ووقعه فى السمع والقلب ، وتارة بإيحائه وظله المديد فى الخيال ، والوجدان ، أو بهما معاً ؛ وهو الغالب ، وننبه إلى أن السياق يبرز اللفظ فى صورته المشعة ، ويضع اللمسات النهائية ، وكأن اللفظ من الجملة بمنزلة مركز الدائرة ، أو

---

(٢٠٤) فن التحرير العربى ضوابطه وأنماطه للدكتور محمد صالح الشنطى ص٥٤-٥٥ طبع دار الأندلس بالمملكة العربية السعودية ١٩٩٦م.

عصب الإنسان يربط الجملة بأمراس من الحيوية ، والبريق ، ولا شك أن الإيقاع ، والصوت من الوسائل الإيجابية لتوصيل الانفعال ، بل إن الصوت وموجاته فى كل عمل فنى ، ليس إلا ثمرة لنوع الانفعال الذى يسود العبارة ، وهنا لون خاص من التصوير بالصوت حينما يكون صدى لصوت طبيعى حقيقة أو تخيلاً "(٢٠٥)

ويعبر عن ذلك ابن جنى بأن الألفاظ المثبتة ، والظاهرة لا تقف وحدها فى رسم الصورة المرادة ، وإيضاح المعنى ، بل يساندها الصوت والحدث ، والتعبير الوجهى ، والجسدى ، والوقت الزمنى لنطق الصوت ودرجة ارتكازه ، وكذلك ما انتوى من الألفاظ حيث يقول " وقد حذفت الصفة ودلّت الحال عليها ، وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم "سير عليه ليل" ، وهم يريدون "ليل طويل" وكان هذا إنما حذفت فيه الصفة ، لما دل من الحال على موضعها ، وذلك أنك تحس فى كلام القائل لذلك من التطويح ، والتطريح ، والتفخيم ، والتعظيم ما يقوم مقام قوله "طويل" أو نحو ذلك . وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته ، وذلك أن تكون فى مدح إنسان و الثناء عليه ، فتقول : كان والله رجلاً ! فتزيد فى قوة اللفظ بـ"الله" هذه الكلمة ، وتمكن فى تمطيط اللام ، إطالة الصوت بها ، وعليها ، أى رجلاً فاضلاً ، أو شجاعاً ، أو كريماً أو نحو ذلك "(٢٠٦)

---

(٢٠٥) من الإعجاز البلاغى د/صباح عبيد دراز ص١٠-١١ نشر المكتبة التوفيقية بالقاهرة ١٩٨٠م.

(٢٠٦) الخصائص ٢/٣٧٠-٣٧١.

وعلى ذلك فإن " العلاقة كاملة بين الأصوات المعبرة ، والمعانى الثائرة فى النفس ؛ لأنها صورتها تعلو ، وتنصبُّ ، وتلين وتشتد ، وتطول وتقصر "(٢٠٧)

السمع والتحليل اللغوى على المستوى الصوتى

لا شك أن التحليل الصوتى يُعد من أهم مستويات التحليل اللغوى ، ويقوم هذا التحليل ببيان عدد الوحدات الصوتية التى يترتب على اختلافها اختلاف المعانى ، ثم يتناول بعد ذلك الصور الصوتية أو الألفونات أى البدائل النطقية العديدة للفونيم الواحد ، ولا شك أن " فكرة معنى الصوت ، وتوزيعه ، ووظيفته داخلة فى صلب الدراسة الصوتية للكلمة ، أكثر من الجوانب الصوتية الخالصة التى نجدها فى علم الأصوات ، وكل ذلك يشكل جانباً أساسياً من مباحث الفونولوجى الذى يولى جُلّ اهتمامه إلى العناصر الصوتية التى تؤدى إلى اختلاف المعنى كالفرق بين نقد ، ونقض ، وصال ، وجال .

على ذلك فهو علم ينظر إلى الأصوات باعتبارها نظام صوتى له معنى ، أو مجموعة متناسقة من الأصوات ترتبط بعلاقات معينة . وعلى ذلك -أيضاً- يمكن القول بأن النظام الصوتى بهذا المفهوم يتألف فى كل لغة من عدد محدود من الأصوات بحيث تكّون مجتمعة كتلاً صوتية ترتبط أجزاؤها بعلاقات ووشائج معينة تنشأ من تجاور الأصوات ، ومواقعها ، وكونها فى هذا الحرف أو ذاك ، أو فى هذا المقطع أو ذاك . ومن ثَمَّ فإن مجموعة العلاقات هذه هى التى تشكل

---

(٢٠٧) الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية د/كمال عز الدين ص٢٧٥ طبع دار إقرأ.

البنية الأساسية لما نسميه الكلمة . وتجعل منها تنظيماً وتوزيعاً له إشارته المتماثلة أحياناً ، والمتخالفة حيناً أخرى "(٢٠٨)

ولاشك أن التنوعات الصوتية الناتجة عن تأثر الأصوات وتأثيرها جهراً وهمساً ، وتفخيماً وترقيقاً ، هى الصورة الحقيقية المنطوقة للصورة الذهنية للوحدة الصوتية " فالفونيمات أنماط ، أو صور ذهنية والمنطوق بالفعل هو صورها ، وأمثلتها الجزئية أو ما يسمى "ALLOPHONES" وهى تختلف من سياق إلى آخر ، ولذلك فإن فى كل لغة من اللغات عدداً محدوداً من الفونيمات يتراوح ما بين خمسة عشر ، وخمسين ، إلاّ أن أغلب اللغات ينحصر عدد الفونيمات فيها فى ثلاثين فونيماً ، أما الألفونات "ALLOPHONES" فهى كثيرة لا يمكن حصرها "(٢٠٩)

" والألفونات ، أو الأصوات ، وهى التنوعات الصوتية التى يتحقق بها الفونيم ، وذلك يتوقف على موقع الصوت فى الكلمة ، وعلى الأصوات المجاورة له مثل مجيئة قبل صامت ، أو قبل صائت ، أو وروده بين صائتين ، أو كونه ملاصقاً لصوت مجهور ، أو لآخر مهموس"(٢١٠)

ولاشك أن هذه الألفونات لا يمكن تحقيقها وإدراكها من خلال المكتوب ، وإنما يتحقق ذلك من خلال السمع فقط.

---

(٢٠٨) المؤثرات الإيقاعية فى لغة الشعر للدكتور ممدوح عبد الرحمن ص١٨-١٩طبع دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية ١٩٩٤م.

(٢٠٩) علم اللغة بين التراث و المعاصرة د/عاطف مدكور ص١٢٦.

(٢١٠) السابق ص١٢٤.

وإذا كنا قد ذكرنا من قبل استثمار الشعراء لإيحاء الألفاظ ، والأصوات للتعبير النفسى ، فإن الأدباء أيضاً لا يفوتهم استثمار هذا الإيحاء من الكلمات التى يشبه لفظها معناها ، وتآلف الأصوات ، وانسجامها ، وتنافرها واختلافها ، وأثر ذلك كله فى المتلقى ، بل إن الأعمال الأدبية الدرامية فإنها لا تقف عند النص المكتوب بل المهم فيه التعبير عن هذه المكتوب بما يؤثر فى المتلقى من نبر ، وتقطيع ، ووقف ، وارتفاع ، وانخفاض ، وحركات جسدية ، وتعبيرات وجهية ، وهذه الأشياء المؤثرة تقف عند المنطوق.

ولذلك أورد الدكتور مازن الوعر عند حديثه عن العلاقة الوشيجة بين الأدب واللسانيات قوله : ١ــ تبحث اللسانيات اليوم بمبدأ يكمن فى التأثير الذى تفرزه بعض الكلمات التى يشبه لفظها معناها كالخرير ، والحثيث ، والقعقعة ، والصهيل ، كما تبحث تأثير الأصوات عندما يرتبط بعضها برقاب بعض عن طريق انسجامها ، وتنافرها ، وائتلافها ، وتغيرها... الخ، إن قارئ الأدب لابد أن يقدر هذه الصفات فى النص الأدبى لذلك وجب على الأديب معرفة طبيعة هذه التأثيرات الصوتية ، ولا يمكن فعل ذلك إلاّ إذا استعان باللسانيات.

٢-حاجة بعض الأنواع الأدبية لأن تعبر عن الكلام المنطوق بوساطة شخصية كما هو الأمر فى الأدب الدرامى -المسرحى- إن المتفرج يود أن تحقق هذه الشخصية الأدبية كل ما تستطيع من أجل أن يكون حوارها تاماً وكاملاً من الناحية الصوتية ، وذلك لأن النظام الألفبائى غير كاف لتمثيل كل ما يقال كتابة ، من هنا فإن الكاتب المسرحى يلجأ إلى كفاءة الشخصية ومهاراتها التى تؤدى هذا المكتوب أداء خلاّقا مع نبر صحيح ، وإشارة سيمائية معبّرة ،

ونغمة صوتية مؤثرة ونطق متقطع ، ووقفات كلامية ، وإعادة لما يمكن أن يعاد ، ثم ربط هذه المكونات بالحركات الجسمية التى تؤديها الشخصية ، وهذا يعنى أن الكاتب المسرحى لابد أن يتأثر بالنتائج التى تفرزها اللسانيات الحديثة لكى يثتثمرها فى عمله المسرحى ؛ ليكون أنجح إيصالاً وتوصيلاً "(٢١١)

وقد خلص إلى القول بأن " الصيغ الصوتية والتركيبية المستعملة فى أنواع أدبية عديدة تدين فى تأثيرها لمعرفتنا ببنية النص المنطوق"(٢١٢)

لقد أشرنا قبلاً إلى أن الزمن النطقى للصوت يؤثر فى المعنى ، ويظهر ذلك جليا فى أصوات المد ، فإن مطلها وزيادتها عن مدها الطبيعى يعطى معنى جديداً ، وكذلك عدم إعطائها حقها من المد يعطى معنى آخر ، ولا يمكن أن يضبط هذا الزمن من خلال المكتوب ، بل هو-كما أشرنا من قبل-يضبط من خلال المرن والمشافهة والسماع ، وعن ذلك يقول السيوطى " فإذا كانت الألفاظ أدلة على المعانى ، ثم زيد فيها شئ أوجبت القسمة به زيادة المعنى له ، وكذلك إن انحرف به عن سمته ، وهديه ، كان دليلاً على حادث متجدد له".(٢١٣) وقد أورد ابن الجزرى ما يؤيد ذلك عندما قال :

حدثنا سليم قال : سمعت حمزة يقول : إنما أزيد على الغلام فى المدّ ليأتى بالمعنى ، وروينا عن حمزة -أيضاً- أن رجلاً قرأ عليه فجعل يمد فقال له حمزة : لا تفعل

---

(٢١١) مجلة عالم الفكر ص١٥٠-١٥١ تحت مقال بعنوان "الاتجاهات اللسانية ودورها فى الدراسات الأسلوبية للدكتور مازن الوعر .المجلد الثانى والعشرون العدد الثالث والرابع ١٩٩٤ -الكويت .

(٢١٢) السابق ص١٥٠.

(٢١٣) الأشباه والنظائر فى النحو للسيوطى ١٧٢/١ طبع دار الكتاب العلمية -لبنان.

أما علمت أن ما كان فوق البياض فهو برص ، وما كان فوق الجعودة فهو قطط ، وما كان فوق القراءة فليس بقراءة ، قلت : فالأول لمّا لم يوف الحق زاد عليه ليوفيه ، والثانى لمّا زاد على الحق رد عليه ليهديه فلا يكون تفريط ولا إفراط "(٢١٤) ومما يدل على أن طول الصوت يحمل معنى زائداً عن القصر ما أورده ابن جنى " وعلى ذكر طول الأصوات وقصرها لقوة المعانى المعتبر بها عنها وضعفها ما يحكى أن رجلاً ضرب ابناً له ، فقالت له أمه : لا تضربه ، ليس هو ابنك فرافعها إلى القاضى فقال : هذا ابنى عندى ، وهذه أمه تذكر أنه ليس منى . فقالت المرأة : ليس الأمر على ما ذكره ، وإنما أخذ يضرب ابنه فقلت له : لا تضربه ليس هو ابنك ، ومدّت فتحة النون جداً ، فقال الرجل : والله ما كان فيه هذا الطويل الطويل "(٢١٥) ، زيادة المد على المد الطبيعى تحمل معان عدة مثل المبالغة فى النفى ، أو الدعاء ، أو التعجب أو التحسر ، أو الندبة ، أو الاستهزاء أو الإنكار ، أو التذكر ، أو التنبيه إلى الخطاء ، أو غير ذلك مما يحكمه اللقاء والسياق"(٢١٦) .

ومن الجوانب الأدائية التى تتوقف على السمع "الوقف" ، وعن ذلك يقول ابن الجزرى " الصحيح أن السكت مقيد بالسماع والنقل ، فلا يجوز إلا

---

(٢١٤)النشر فى القراءات العشر ٢٥٦/١.

(٢١٥) المحتسب فى تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها تأليف أبي الفتح بن جنى ٢١٠/٢ تحقيق على النجدى ناصف و الدكتور عبد الفتاح شلبى طبع لجنة إحياء التراث.

(٢١٦) انظر أصوات المد دراسة صوتية ودلالية للدكتور محمد عبد اللطيف ص٣٥-٥٨ نشر الدار الإسلامية للطباعة والنشر ١٩٩٨ .

فيما صحّت الرواية به لمعنى مقصود بذاته ، وذهب ابن سعدان فيما حكاه عن أبى عمرو ، وأبو بكر بن مجاهد ، فيما حكاه عن أبي الفضل الخزاعى إلى إنه جائز فى رؤوس الآى مطلقاً حالة الوصل لقصد البيان "(٢١٧) وأورد السيوطى " الوقف ، والقطع ، والسكت عبارات يطلقها المتقدمون غالباً مراداً بها الوقف ، والمتأخرون فرّقوا ، وقالوا : القطع عبارة عن قطع القراءة رأساً ، فهو كالانتهاء... والوقف : عبارة عن قطع الصوت عن الكلمة زمناً يتنفس فيه عادة بنية استئناف القراءة لا بنية الإعراض ... والسكت : عبارة عن قطع الصوت زمناً دون زمن الوقف عادة من غير تنفس ".(٢١٨)

ومما يدل على أنه أمر أدائى يتوقف على السماع اختلاف اللهجات فيه فقد ورد " وفى الألف الموقوف عليها لغات أشهرها : أن تقرّ على صورتها . الثانية قلبها ياءً ؛ لأن الياء أبين من الألف ، وهى لغة فزارة ، وبعض قيس . والثالثة قلبها واواً ؛ لأن الواو أبين من الياء ، وهى لغة بعض طيئ. والرابعة قلبها همزة ؛ لأن الهمزة أخت الألف ، وهى أبين الحروف كلها ، وهى لغة بعض طيئ أيضاً ، وليس من لغتهم التخفيف ".(٢١٩)

ولذلك يؤكد السيوطى فيما نقله عن ابن مجاهد أن الوقف من الجوانب الأدائية التى تتطلب من مؤديها أن يكون ذا علمية مؤهلة لإتقان الوقف حيث يقول " قال ابن مجاهد : لا يقوم بالتمام فى الوقف إلاّ نحويٌ عالم بالقراءات ،

---

(٢١٧) النشر فى القراءات العشر ١٩٢/١.

(٢١٨) تهذيب وترتيب الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ص ٢٦٣. بقلم محمد بن عمر بن سالم بازمول طبع دار الهجرة بالرياض ١٩٩٢.

(٢١٩) شرح التصريح على التوضيح للشيخ خالد الأزهرى ٣٣٩/٢.

عالم بالتفسير والقصص ، وتخليص بعضها من بعض ، عالم باللغة التى نزل بها القرآن "(٢٢٠)

وأورد السيوطى فيما نقله عن النكزاوى عن أهمية الوقف وخطره فى فهم المعنى واستنباطه حيث يقول " وقال النكزاوى : باب الوقف عظيم القدر ، جليل الخطر ؛ لأنه لا يتأتى لأحد معرفة معانى القرآن ، ولا استنباط الأدلة الشرعية ؛ إلاّ بمعرفة الفواصل "(٢٢١)

وأورد العلماء الوجوه التى يكون عليها الوقف " إن للوقف ثلاثة عشر وجهاً : الإسكان المجرد ، والرَّوْم ، والإشمام ، وإبدال الألف ، وإبدال تاء تأنيث الأسمية هاء ، وزيادة الألف ، وإلحاق هاء السكت ، وإثبات الواو ، والياء ، أو حذفهما ، وإبدال الهمزة ، والتضعيف ، ونقل الحركة .وهذه الوجوه مختلفة فى المحل ؛ لأن للإسكان المجرد محلاً مخصوصاً ، وكذا الرَّوْم ، والإشمام إلى غير ذلك ".(٢٢٢)

ويوضح ابن جنى أن الوقف يقوم بدور دلالى هام حيث يقول " لكن روم الحركة يكاد الحرف يكون به متحركاً ؛ ألا تراك تفصل به بين المذَّكر

(٢٢٠) تهذيب وترتيب الإتقان فى علوم القرآن ص٢٧١.

(٢٢١) تهذيب وترتيب الإتقان فى علوم القرآن ص٢٦٢.

(٢٢٢) الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر تأليف السيد محمود شكرى الألوسى ص ١٦٦ تحقيق / محمد بهجة الأثرى ، طبع دار الأفاق العربية بالقاهرة سنة ١٩٩٨م.

والمؤنّث فى قولك فى الوقف : أنتَ وأنتِ ، فلولا أن هناك صوتاً لما وجدت فصلا "(٢٢٣)

وأورد ابن جنى -أيضاً- أن الوقف يضعف الصوت ، ولذلك يحتاج إلى تمكينه وتقويته ليظهر فى السمع حيث يقول " فإن قلت : فقد نجد من الحروف ما يتبعه فى الوقف صوت ، وهو مع ذلك ساكن . وهو الفاء ، والثاء ، والسين ، والصاد ، ونحو ذلك ؛ تقول فى الوقف : إف ، اِثْ ، اِسْ ، اِصْ . قيل : هذا القدر من الصوت إنما هو متمم للحرف ، وموفّ له فى الوقف . فإذا وصلت ذهب أو كاد . وإنما لحقه فى الوقف لأن الوقف يُضْعف الحرف ؛ ألا تراك تحتاج إلى بيانه فيه بالهاء ، نحو واغلاماه ، ووازيداه ، وواغلامهوه ، وواغلامهيه ، وذلك أنك لّما أردت تمكين الصوت ، وتوفيته ؛ ليمتد ، ويقوى فى السمع ، وكان الوقف يضعف الحرف ألحقت ليقع الحرف قبلها حشواً ، فيبين ولا يخفى.

ومع ذلك فإن هذا الصوت اللاحق للفاء ، والسين ، ونحوهما إنما هو بمنزلة الإطباق فى الطاء ، والتكرير فى الراء ، والتفشى فى الشين وقوة الاعتماد الذى فى اللام"(٢٢٤)

وأورد سيبويه فى أكثر من موضع أن لجوء العرب الي الوجوه المختلفة من الوقف الهدف منه البيان ، والبيان هنا يعني إظهار الحركة أو الحرف ، وهذا يعنى إظهاره فى النطق دون الكتابة ؛ لأن الوقف أمر مُدْرك بالسمع ، وعن ذلك يقول " واعلم أن ناساً من العرب كثيراً يُلْقُون علي الساكن الذى

(٢٢٣) الخصائص لابن جنى ٣٢٨/٢.

(٢٢٤)الخصائص ٣٢٨/٢.

قبل الهمزة حركة الهمزة ، سمعنا ذلك من تميم وأسد ، يريدون بذلك بيان الهمزة ، وهو أبين لها إذا وليت صوتاً والساكن لا ترفع لسانك عنه بصوت لو رفعت بصوت حرّكته ، فلما كانت الهمزة أبعد الحروف ، وأخفاها فى الوقف حرّكوا ما قبلها ؛ ليكون أبين لها ، وذلك قولهم هو الوثُؤْ ، ومن الوثِئْ ، ورأيت الوثَأْ"(٢٢٥) وفى موضع آخر يقول : " ومن العرب من يقول هذا هو الكَلَوْ حرصاً على البيان "(٢٢٦) و أورد عنواناً " هذا باب الساكن الذى تحركه فى الوقف إذا كان بعده هاء المذكر الذى هو علامة الإضمار ليكون أبين لها ، كما أوردت ذلك فى الهمزة " وذلك قولك : ضرَبْتُهْ ، واضْرِبُهْ "(٢٢٧) و أورد أيضاً "وأما ناس من بنى سعد فإنهم يبدلون الجيم مكان الياء فى الوقف ؛ لأنها خفية ، فأبدلوا من موضعها أبين الحروف ، وذلك قولهم : هذا تميمجّ ، يريدون تميمى "(٢٢٨) وأورد -أيضاً- فأما ناس كثير من تميم وناس من أسد ، فإنهم يجعلون مكان الكاف للمؤنث الشين ، وذلك أنهم أرادوا البيان فى الوقف ؛ لأنها ساكنة فى الوقف ، فأرادوا أن يفصلوا بيْن المذكر والمؤنث "(٢٢٩) وأورد -أيضاً- " واعلم أن ناساً من العرب يلحقون الكاف السين ؛ ليبينوا كسرة التأنيث ... ... وقوم يلحقون الشين ليبينوا بها الكسرة فى الوقف ، كما أبدلوها مكانها للبيان . وذلك

(٢٢٥) الكتاب ١٧٧/٤.

(٢٢٦) الكتاب ١٧٨/٤.

(٢٢٧) الكتاب ١٧٩/٤

(٢٢٨) الكتاب ١٨٢/٤.

(٢٢٩) الكتاب ١٩٩/٤.

قولهم : أعطيتكش ، وأكرمتكش ، فإذا وصلوا تركوها . وإنما يلحقون السين ، والشين فى التأنيث ، لأنهم جعلوا تركهما بيان التذكير "(٢٣٠)

وقد أوضحت هذه الأدلة أن المقصود من الجوانب المختلفة فى الوقف هو البيان للحركة التى يتوقف عليها المعنى كما فى التذكير ، والتأنيث ، وقد أفرد بعض الباحثين المحدثين الوقف اللازم فى دراسة مستقلة خصصها لبيان الآثار للوقف اللازم .(٢٣١) والوقف اللازم هو أحد أنواع الوقوف التى تناولها علماء الترتيل القرآنى .

(٢٣٠) الكتاب ١٩٩/٤-٢٠٠.

(٢٣١) الوقف اللازم فى القرآن الكريم دراسة دلالية د/محمود زين العابدين محمد مكتبة دار الفجر الإسلامية بالمدينة المنورة ١٩٩٨م.

المصادر والمراجع

١ ــ أحكام تجويد القرآن الكريم فى ضوء علم اللغة الحديث د/ عبد الله عبد الحميد سويد . بدون طبعة أو تاريخ .

٢ ــ أسس علم اللغة تأليف " ماريو باى " ترجمة وتعليق د / أحمد مختار عمر ، طبع عالم الكتب بالقاهرة سنة ١٩٨٣م .

٣ ــ الأشباه والنظائر فى النحو للسيوطى ــ طبع دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان .

٤ ــ الأصوات والإشارات تأليف أ ــ كندراتوف ، ترجمة شوقى جلال ، طبع الهيئة المصرية العامة بالقاهرة سنة ١٩٧٢م .

٥ ــ الأصوات اللغوية د / إبراهيم أنيس ، طبع مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٤م .

٦ ــ أصوات اللغة العربية د / عبد الغفار حامد هلال ، مطبعة الجبلاوى بمصر سنة ١٩٨٨م .

٧ــ أصوات المد دراسة صوتيه ودلالية د / محمد عبد اللطيف على نشر الدار الإسلامية بالقاهرة سنة ١٩٩٨م .

٨ــ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية تأليف مصطفى صادق الرافعى ، طبع مطبعة الاستقامة بمصر سنة ١٩٧٥هـ .

٩ــ التجويد والأصوات د / إبراهيم نجا طبع ١٩٧٢م .

١٠ــ تهذيب وترتيب الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، بقلم محمد بن عمر بن سالم بازمول طبع دار الهجرة بالسعودية ــ الرياض ــ سنة ١٩٩٢م .

١١ــ جواهر الكتر تأليف نجم الدين بن الأثير الحلبى تحقيق محمد زغلول سلام طبع منشأة المعارف بالإسكندرية .

١٢ــ الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية تأليف د / كمال عز الدين ، طبع دار أقرأ .

١٣ــ الخصائص لابن جنى تحقيق محمد على النجار طبع دار الهدى للطباعة والنشر لبنان الطبعة الثانية .

١٤ــ الدراسات الصوتية عند علماء العربية تأليف عبد الهادى إبراهيم الأصبيعي . منشورات كلية الدعوة الإسلامية ــ ليبيا ــ سنة ١٤٠١هـ .

١٥ــ دلالة الألفاظ للدكتور إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٦م .

١٦ــ دور الكلمة فى اللغة تأليف : ستيفن أولمان . ترجمة د / كمال بشر ، طبع دار غريب بالقاهرة سنة ١٩٩٧م .

١٧ــ سر صناعة الإعراب لأبى الفتح بن جنى ، تحقيق د / حسن هنداوى ، طبع دار القلم ــ دمشق ــ سنة ١٩٩٣م .

١٨ــ سر الفصاحة لأبى محمد الخفاجى . شرح وتصحيح محمد عبد المتعال الصعيدى طبع مكتبة محمد على صبيح سنة ١٩٦٩م.

١٩ــ شرح التصريح على التوضيح للشيخ خالد الأزهرى ، دار إحياء الكتب العربية لبنان .

٢٠ــ شروح التلخيص للشيخ أكمل الدين البابرتى تحقيق محمد مصطفى رمضان ، طبع المنشأة العامة ــ ليبيا ــ سنة ١٩٨٣م .

٢١ــ الصناعتين ــ لأبى هلال العسكرى ــ طبع دار الكتب العلمية سنة ١٩٧١م .

٢٢ــ الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر ، تأليف السيد محمود شكرى الألوسى ، تحقيق محمد بهجة الأثرى ، طبع دار الأفاق العربية بالقاهرة سنة ١٩٩٨م .

٢٣ــ علم الفصاحة العربية ، د / محمد على رزق الخفاجى ، طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٢م .

٢٤ــ علم اللغة بين التراث والمعاصرة د / عاطف مدكور طبع دار الثقافة للنشر والتوزيع بالقاهرة سنة ١٩٨٧م .

٢٥ــ علم اللغة بين القديم والحديث د/ عبد الغفار حامد هلال طبع مطبعة الجبلاوى بمصر سنة ١٩٨٦م.

٢٦ــ علم اللغة مقدمة للقارئ العربى د / محمود السعران ، طبع دار النهضة العربية للطباعة والنشر ــ لبنان .

٢٧ــ علوم البلاغة طبع المكتبة المحمودية التجارية ، الطبعة السادسة .

٢٨ــ الغرابة فى الحديث النبوى للدكتور عبد الفتاح البركاوى

٢٩ــ فقه اللغة العربية د / كاصد ياسر الزيدى ، طبع دار الكتب للطباعة والنشر جامعة الموصل ــ بغداد سنة ١٩٨٧م .

٣٠ــ فن التحرير العربى ضوابطه وأنماطه د / محمد صالح الشنطى ، طبع دار الأندلس بالرياض سنة ١٩٩٦م .

٣١ــ فى علم الأصوات اللغوية وعيوب النطق د / البدراوى زهران ، طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٩٤ م .

٣٢ــ فى علم اللغة العام د / عبد الصبور شاهين ، طبع مؤسسة الرسالة سنة ١٩٨٤م .

٣٣ــ فى اللهجات العربية د / إبراهيم أنيس ، طبع الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٤م الطبعة السادسة

٣٤ــ الكتاب لسيبوبة تحقيق محمد عبد السلام هارون طبع الهيئة العامة المصرية للكتاب سنة ١٩٧٧م ، والخانجى بمصر سنة ١٩٨٢م.

٣٥ــ كلام العرب من قضايا اللغة العربية د / حسن ظاظا ، طبع دار النهضة العربية ــ لبنان ــ سنة ١٩٧٦م .

٣٦ــ لسان العرب لابن منظور ، طبعة مصورة عن طبعة بولاق .

٣٧ــ اللغة العربية معناها ومبناها د / تمام حسان طبع الهيئة العامة للكتاب بمصر سنة ١٩٧٩م .

٣٨ــ المؤثرات الإيقاعية فى لغة الشعر د / ممدوح عبد الرحمن ، طبع دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية سنة ١٩٩٤م .

٣٩ــ مباحث فى علوم القرآن تأليف الشيخ مناع القطان ، مؤسسة الرسالة ــ لبنان سنة ١٩٩٥م .

٤٠ــ المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر تأليف ضياء الدين بن الأثير تحقيق د / أحمد الحوفى ، ود / بدوى طبانة ، طبعة دار نهضة مصر .

٤١ــ مجلة عالم الفكر ــ المجلد الثانى والعشرون ــ العدد الثالث والرابع سنة ١٩٩٤م تصدر بالكويت ، مقال للدكتور مازن الوعر بعنوان " الاتجاهات اللسانية ودورها فى الدراسات الأسلوبية " .

٤٢ــ المحتسب فى تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها تأليف أبو الفتح بن جنى تحقيق على النجدى ناصف ، والدكتور عبد الفتاح شلبى ، طبع لجنة إحياء التراث .

٤٣ــ مختصر العلامة سعد الدين التفتازانى على تلخيص المفتاح للخطيب القزوينى طبع مطابع محمد على صبيح سنة ١٣٤٧هـ

٤٤ــ مختصر المعانى وهو الشرح الصغير على متن تلخيص المفتاح للخطيب القزوينى تأليف مسعود بن عمر المشهور بالتفتازانى طبع مطابع محمد على صبيح

٤٥ - مقدمه فى أصوات اللغة العربية للدكتور عبد الفتاح البركاوى .

٤٦ــ من الإعجاز البلاغى د / صباح عبيد دراز ، نشر المكتبة التوفيقية بالقاهرة سنة ١٩٨٠م .

٤٧ــ النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى ، نشر دار الكتب العلمية لبنان ــ بيروت سنة ١٩٩٨م .

٤٨ــ الوقف اللازم فى القرآن الكريم دراسة دلالية د / محمود يحيى العابدين محمد ، مكتبة دار الفجر بالمدينة المنورة سنة ١٩٩٨م.